الفصل الرابع

أئمة أهل البيت

(١) علي بن أبي طالب

(٢) الحسن بن علي

(٣) الحسين بن علي

(٤) علي زين العابدين

(٥) محمد الباقر

(٦) جعفر الصادق

(٧) موسى الكاظم

(٨) علي الرضا

(٩) محمد بن علي (الجواد)

(١٠) علي بن محمد (الهادي)

(١١) الحسن العسكري

(١٢) محمد بن الحسن العسكري (المهدي المنتظر)

obeikandl.com

obeikandl.com

(١) على بن أبى طالب رضي الله عنه
وفقًا لما رواه السيوطى فى تاريخ الخلفاء

نسبه وكناه

على بن أبى طالب رضي الله عنه ـ واسم أبى طالب عبد مناف ـ بن عبد المطلب ـ واسمه شَيبة ـ بن هاشم واسمه عمرو، بن عبد مناف، واسمه المغيرة، بن قصى، واسمه زيد، بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن نضر بن كنانة، أبو الحسن، وأبو تراب، كناه بها النبى صلى الله عليه وسلم.

وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم وهى أول هاشمية ولدت هاشميًا قد أسلمت وهاجرت.

وعلى ـ رضي الله عنه ! ـ أحد العشرة[1] المشهود لهم بالجنة، وأخو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمؤاخاة، وصهره على فاطمة سيدة نساء العالمين رضى الله عنها، وأحد السابقين إلى الإسلام، وأحد العلماء الربانيين، والشجعان المشهورين والزهاد المذكورين، والخطباء المعروفين، وأحد من جمع القرآن وعرضه على النبى عليه الصلاة والسلام، وعرض عليه أبو الأسود الدؤلى، وأبو عبد الرحمن السلمى، وعبد الرحمن ابن أبى ليلى، وهو أول خليفة من بنى هاشم، وأبو السبطين، أسلم قديمًا، بل قال ابن عباس وأنس وزيد بن أرقم وسلمان الفارسى وجماعة: إنه أول من أسلم، ونقل بعضهم الإجماع عليه.

وأخرج أبو يعلى عن على رضي الله عنه، قال: بُعث رسول الله عليه الصلاة والسلام يوم الإثنين وأسلمت يوم الثلاثاء، وكان عمره حين أسلم عشر سنين، وقيل: تسع، وقيل: ثمان، وقيل: دون ذلك، قال الحسن بن زيد بن الحسن: ولم يعبد الأوثان قط لصغره، أخرجه ابن سعد.

(١) هم فى الحقيقة أكثر من ذلك، ولكن تلك رواية ليست حصرية.

obeikandl.com

ولما هاجر عليه الصلاة والسلام إلى المدينة أمره أن يقيم بعده بمكة أيامًا حتى يؤدى عنه أمانة الودائع والوصايا التى كانت عند النبى عليه الصلاة والسلام ثم يلحقه بأهله، ففعل ذلك.

وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدرًا وأحدًا وسائر المشاهد إلا تبوك؛ فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم استخلفه على المدينة، وله فى جميع المشاهد آثار مشهورة، وأعطاه النبى عليه الصلاة والسلام اللواء فى مواطن كثيرة.

وقال سعيد بن المسيب: أصابت عليّا يوم أحد ست عشرة ضربة.

وثبت فى الصحيحين «أنه عليه الصلاة والسلام أعطاه الراية فى يوم خيبر وأخبر أن الفتح يكون على يديه» وأحواله فى الشجاعة وآثاره فى الحروب مشهورة.

وأخرج ابن إسحاق فى المغازى وابن عساكر عن أبى رافع أن عليّا تناول بابًا عند الحصن ـ حصن خيبر ـ فتترس به عن نفسه، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله علينا، ثم ألقاه، فلقد رأيتنا ثمانية نفر نجهد أن نقلب ذلك الباب فما استطعنا أن نقلبه.

وروى البخارى فى الأدب عن سهل بن سعد قال: إن كان أحب أسماء على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إليه «أبا تراب»، وإن كان ليفرح أن يدعى به، وما سماه أبا تراب إلا النبى عليه الصلاة والسلام، وذلك أنه غاضب يومًا فاطمة، فخرج فاضطجع إلى الجدار فى المسجد، فجاءه النبى عليه الصلاة والسلام، وقد امتلأ ظهره ترابًا، فجعل النبى عليه الصلاة والسلام يمسح التراب عن ظهره ويقول: «اجلس أبا تراب».

رُوى له عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم خمسمائة حديث وستة وثمانون حديثًا.

روى عنه بنوه الثلاثة: الحسن، والحسين، ومحمد بن الحنفية، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وابن الزبير، وأبو موسى، وأبو سعيد، وزيد بن الأرقم، وجابر ابن عبد الله، وأبو إمامة، وأبو هريرة، وخلائق من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين!

فصل فى الأحاديث الواردة فى فضله

قال الإمام ابن حنبل: ما ورد لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الفضائل ما ورد لعلى رضي الله عنه، أخرجه الحاكم.

وأخرج الشيخان عن سعد بن أبى وقاص «أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلف على بن أبى طالب فى غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله تخلفنى فى النساء والصبيان؟ فقال: «**أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبى بعدى**» أخرجه أحمد والبزار من حديث أبى سعيد الخدرى، والطبرانى من حديث أسماء بنت قيس، وأم سلمة، وحبشى بن جنادة، وابن عمر، وابن عباس، وجابر بن سمرة، والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم.

وأخرجا عن سهل بن سعد «أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يوم خيبر: «**لأعطين الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**»، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «**أين على بن أبى طالب؟**» فقيل: هو يشتكى عينيه، قال: «**فأرسلوا إليه**»، فأتى به، فبصق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى عينيه، ودعا له، فبرئ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية».

(يدوكون: أى يخوضون ويتحدثون).

وقد أخرج هذا الحديث الطبرانى من حديث ابن عمر، وعلىّ، وابن أبى ليلى، وعمران بن حصين، والبزار من حديث ابن عباس.

وأخرج مسلم عن سعد بن أبى وقاص قال: لما نزلت هذه الآية ﴿**نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ**﴾ [آل عمران: ٦١]. دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليّا، وفاطمة، وحسنًا وحسينًا، فقال: «**اللهم هؤلاء أهلى**».

وأخرج الترمذى عن أبى سريحة، أبى زيد بن أرقم، عن النبى عليه الصلاة والسلام قال: «**من كنت مولاه فعلى مولاه**». وأخرجه أحمد عن على، وأبى أيوب الأنصارى، وزيد بن أرقم، وعمرو ذى مر، وأبو يعلى عن أبى هريرة، والطبرانى عن ابن عمر، ومالك بن الحويرث وحبشى بن جنادة، وجرير، وسعد بن أبى وقاص، وأبى سعيد

الخدرى، وأنس والبزار عن ابن عباس، وعمارة، وبريدة، وفى أكثرها زيادة «**اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه**».

ولأحمد عن أبى الطفيل قال: جمع علىّ الناس سنة خمس وثلاثين فى الرحبة، ثم قال لهم: أنشد بالله كل أمرى، مسلم سمع رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول يوم غدير خم ما قال لما قام، فقام إليه ثلاثون من الناس، فشهدوا أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: «**من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه**».

وأخرج الترمذى، والحاكم وصححه، عن بريدة قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**إن الله أمرنى بحب أربعة، وأخبرنى أنه يحبهم**»، قيل يا رسول الله سمهم لنا، قال: «**علىّ منهم** ـ يقول ذلك ثلاثًا ـ **وأبو ذر، والمقداد، وسلمان**».

وأخرج الترمذى والنسائى وابن ماجه عن حبشى بن جنادة، قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**علىّ منى، وأنا من علىّ**».

وأخرج الترمذى عن ابن عمر قال: آخى رسول الله عليه الصلاة والسلام بين أصحابه، فجاء علىّ تدمع عيناه، فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك، ولم تؤاخ بينى وبين أحد، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**أنت أخى فى الدنيا والآخرة**».

وأخرج مسلم عن علىّ قال: والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبى الأمى إلىّ أنه لا يحبنى إلا مؤمن، ولا يبغضنى إلا منافق.

وأخرج الترمذى عن أبى سعيد الخدرى، قال: كنا نعرف المنافقين ببغضهم عليًا.

وأخرج البزار، والطبرانى فى الأوسط، عن جابر بن عبد الله وأخرج الترمذى، والحاكم عن علىّ، قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**أنا مدينة العلم، وعلىّ بابها**» هذا حديث حسن على الصواب، لا صحيح كما قال الحاكم، ولا موضوع كما قاله جماعة منهم ابن الجوزى والنووى، وقد بينت حاله فى التعقبات على الموضوعات.

وأخرج الحاكم وصححه عن علىّ قال: «بعثنى رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله بعثتنى وأنا شاب أقضى بينهم، ولا أدرى ما القضاء، فضرب صدرى بيده ثم قال: «**اللهم اهد قلبه وثبت لسانه، فوالذى فلق الحبة ما شككت فى قضاء بين اثنين**».

وأخرج ابن سعد عن علىّ أنه قيل له: ما لك أكثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديثًا؟ قال: إنى كنت إذا سألته أنبأنى، وإذا سكت ابتدأنى.

وأخرج عن أبى هريرة رضي الله عنه، قال: قال عمر بن الخطاب: علىّ أقضانا.

وأخرج الحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علىّ.

وأخرج ابن سعد عن ابن عباس قال: إذا حدثنا ثقة عن علىّ بفتيا لا نعدوها.

وأخرج عن سعيد بن المسيب قال: كان عمر بن الخطاب يتعوذ بالله من معضلة ليس فيها أبو الحسن.

وأخرج عنه قال لم يكن أحد من الصحابة يقول «سلونى» إلا علىّ.

وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود قال: أفرض أهل المدينة وأقضاها على بن أبى طالب.

وأخرج عن عائشة رضى الله عنها أن عليّا ذكر عندها، فقالت: أما إنه أعلم من بقى بالسنة.

وقال مسروق: انتهى علم أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى عمر، وعلىّ، وابن مسعود، وعبد الله رضى الله عنهم!.

وقال عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة: كان لعلىّ ما شئت من ضرس قاطع فى العلم، وكان له البسط فى العشيرة، والقدم فى الإسلام والعهد برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والفقه فى السنة، والنجدة فى الحرب، والجود فى المال.

وأخرج الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف عن جابر بن عبد الله قال: قال النبى عليه الصلاة والسلام: «**الناس من شجر شتى، وأنا وعلىّ من شجرة واحدة**».

وأخرج الطبرانى وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: ما أنزل الله ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ إلاوعلى أميرها وشريفها، ولقد عاتب الله أصحاب محمد فى غير مكان وما ذكر عليّا إلا بخير.

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال: ما نزل فى أحد من كتاب الله تعالى ما نزل فى علىّ.

وأخرج الطبرانى، والحاكم وصححه، عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا غضب لم يجترئ أحد أن يكلمه إلا علىّ.

وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس قال: كانت لعلىّ ثمان عشرة منقبة ما كانت لأحد من هذه الأمة.

وأخرج أبو يعلى عن أبى هريرة قال: قال عمر بن الخطاب: لقد أعطى علىّ ثلاث خصال لأن تكون لى خصلة منها أحب إلى من أن أعطى حمر النعم، فسئل وما هن؟ قال: تزوجُه ابنته فاطمة، وسكناه المسجد لا يحل لى فيه ما يحل له، والراية يوم خيبر.

وروى أحمد بسند صحيح عن ابن عمر نحوه.

وأخرج أحمد وأبو يعلى بسند صحيح عن علىّ قال: ما رمدت ولا صدعت منذ مسح رسول الله عليه الصلاة والسلام وجهى، وتفل فى عينى، يوم خيبر حين أعطانى الراية.

وأخرج أبو يعلى والبزار عن سعد بن أبى وقاص قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**من آذى عليّا آذانى**».

وأخرج الطبرانى بسند صحيح عن أم سلمة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: «**من أحب عليّا فقد أحبنى، ومن أحبنى فقد أحب الله، ومن أبغض عليّا فقد أبغضنى، ومن أبغضنى فقد أبغض الله**».

وأخرج أحمد، والحاكم وصححه، عن أم سلمة سمعت النبى عليه الصلاة والسلام يقول: «**من سب عليّا فقد سبنى**».

وأخرج أحمد والحاكم بسند صحيح عن أبى سعيد الخدرى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال لعلىّ: «**إنك تقاتل على القرآن كما قاتلت على تنزيله**».

وأخرج أحمد والحاكم بسند صحيح عن عمار بن ياسر أن النبى عليه الصلاة والسلام قال لعلىّ: «**أشقى الناس رجلان: أحيمر ثمود الذى عقر الناقة، والذى يضربك يا علىّ على هذه** ـ يعنى قرنه ـ **حتى تبتل منه هذه** [من الدم] ـ يعنى لحيته» وقد ورد ذلك من حديث علىّ، وصهيب، وجابر بن سمرة، وغيرهم.

وأخرج الحاكم وصححه عن أبى سعيد الخدرى قال: اشتكى الناس عليّا فقام رسول الله ﷺ فينا خطيبًا فقال: «**لا تشكوا عليّا، فوالله إنه لأخيشن فى ذات الله، أو فى سبيل الله**».

فصل فى مبايعة على رضي الله عنه! بالخلافة وما نشأ عن ذلك

قال ابن سعد: بويع علىّ بالخلافة الغد من قتل عثمان بالمدينة، فبايعه جميع من كان بها من الصحابة رضى الله عنهم، ويقال: إن طلحة والزبير بايعا كارهين غير طائعين، ثم خرجا إلى مكة وعائشة رضى الله عنها بها، فأخذاها وخرجا بها إلى البصرة يطلبون بدم عثمان، وبلغ ذلك عليّا، فخرج إلى العراق فلقى بالبصرة طلحة والزبير وعائشة ومن معهم، وهى وقعة الجمل، وكانت فى جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، وقتل بها طلحة، والزبير، وغيرهما، وبلغت القتلى ثلاثة عشر ألفًا، وأقام علىّ بالبصرة خمس عشرة ليلةً، ثم انصرف إلى الكوفة، ثم خرج عليه معاوية بن أبى سفيان ومن معه بالشام، فبلغ عليّا فسار إليه، فالتقوا بصفين فى صفر سنة سبع وثلاثين، ودام القتال بها أيامًا، فرفع أهل الشام المصاحف يدعون إلى ما فيها مكيدة من عمرو بن العاص، فكره الناس الحرب، وتداعوا إلى الصلح، وحكموا الحكمين، فحكّم علىّ أبا موسى الأشعرى، وحكم معاوية عمرو بن العاص، وكتبوا بينهم كتابًا على أن يوافوا رأس الحول بأذرح فينظروا فى أمر الأمة، فافترق الناس، ورجع معاوية إلى الشام، وعلى إلى الكوفة، فخرجت عليه الخوارج من أصحابه، ومن كان معه، وقالوا: لا حكم إلا الله وعسكروا بحروراء، فبعث إليهم ابن عباس فخاصمهم

وحجهم فرجع منهم قوم كثير، وثبت قوم، وساروا إلى النهروان فعرضوا للسبيل، فسار إليهم علىّ فقتلهم بالنهروان، وقتل منهم ذا الثدية، وذلك سنة ثمان وثلاثين، واجتمع الناس بأذرح فى شعبان من هذه السنة، وحضرها سعد بن أبى وقاص وابن عمر وغيرهما من الصحابة، فقدم عمرو أبا موسى الأشعرى مكيدة منه، فتكلم فخلع علىّا، وتكلم عمرو فأقر معاوية، وبايع له، فتفرق الناس على هذا، وصار علىّ فى خلاف من أصحابه حتى صار يعض على أصبعه ويقول: أعْصَى ويطاع معاوية؟!

وانتدب ثلاثة نفر من الخوارج: عبد الرحمن بن ملجم المرادى، والبرك بن عبد الله التميمى، وعمرو بن بكير التميمى، فاجتمعوا بمكة وتعاهدوا وتعاقدوا ليقتلن هؤلاء الثلاثة: على بن أبى طالب، ومعاوية بن أبى سفيان، وعمرو بن العاص، ويريحوا العباد منهم، فقال ابن ملجم: أنا لكم بعلىّ، وقال البرك: أنا لكم بمعاوية، وقال عمرو بن بكير: أنا أكفيكم عمرو بن العاص، وتعاهدوا على أن ذلك يكون فى ليلة واحدة ليلة حادى عشر أو ليلة سابع عشر رمضان، ثم توجه كل منهم إلى المصر الذى فيه صاحبه؛ فقدم ابن ملجم الكوفة، فلقى أصحابه من الخوارج فكاتمهم ما يرون إلى ليلة الجمعة سابع عشر رمضان سنة أربعين، فاستيقظ علىّ سحراً، ودخل ابن الذباح المؤذن على علىّ، فقال: الصلاة، فخرج علىّ من الباب ينادى: يا أيها الناس الصلاة الصلاة، فاعترضه ابن ملجم، فضربه بالسيف، فأصاب جبهته إلى قرنه ووصل إلى دماغه فشد عليه الناس من كل جانب، فأمسك وأوثق، وأقام علىّ الجمعة والسبت، وتوفى ليلة الأحد، وغسله الحسن والحسين، وعبد الله بن جعفر، وصلى عليه الحسن، ودفن بدار الإمارة بالكوفة ليلاً.

وفى *المستدرك* عن السدى قال: كان عبد الرحمن بن ملجم المرادى عشق امرأة من الخوارج يقال لها: قطام، فنكحها وأصدقها ثلاثة آلاف درهم، وقتل على، وفى ذلك قال الفرزدق:

فلم أر مهراً ساقه ذو سماحة ... كمهر قطام من فصيح وأعجم

ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وضرب علىّ بالحسام المصمم

فلا مهر أغلى من على وإن غلا ... ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

قال أبو بكر بن عياش: عمى قبر علىّ لئلا ينبشه الخوارج، وقال شريك: نقله ابنه الحسن إلى المدينة، وقال المبرد عن محمد بن حبيب: أول من حول من قبر إلى قبر علىّ رضي الله عنه!.

وكان لعلىّ حين قتل ثلاث وستون سنة وقيل: أربع وستون وقيل: خمس وستون، وقيل: سبع وخمسون، وقيل: ثمان وخمسون، وكان له تسع عشرة سرية.

فصل فى نبذ من أخبار على، وقضاياه، وكلماته رضي الله عنه!

وأخرج عن زر بن حبيش قال: جلس رجلان يتغديان، مع أحدهما خمسة أرغفة، ومع الآخر ثلاثة أرغفة، فلما وضعا الغداء بين أيديهما مر بهما رجل، فسلم، فقالا: اجلس وتغد، فجلس وأكل معهما واستووا فى أكلهم الأرغفة الثمانية، فقام الرجل وطرح إليهما ثمانية دراهم، وقال: خذاها عوضًا مما أكلت لكما، ونلته من طعامكما، فتنازعا، فقال صاحب الخمسة الأرغفة: لى خمسة دراهم، ولك ثلاثة، وقال صاحب الأرغفة الثلاثة: لا أرضى إلا أن تكون الدراهم بيننا نصفين، فارتفعا إلى أمير المؤمنين علىّ، فقصَّا عليه قصتهما، قال لصاحب الثلاثة: قد عرض عليك صاحبك ما عرض، وخبزه أكثر من خبزك، فارض بالثلاثة، فقال: والله لا رضيت عنه إلا بمر الحق، فقال علىّ: ليس لك فى مر الحق إلا درهم واحد، وله سبعة دراهم، فقال الرجل: سبحان الله! قال: هو ذلك، قال: فعرفنى الوجه فى مر الحق حتى أقبله، فقال علىّ: أليس للثمانية الأرغفة أربعة وعشرون ثلثًا؟ أكلتموها وأنتم ثلاثة أنفس، ولا يعلم الأكثر منكم أكلاً، ولا الأقل، فتحملون فى أكلكم على السواء، قال: فأكلت أنت ثمانية أثلاث، وإنما لك تسعة أثلاث، وأكل صاحبك ثمانية أثلاث، وله خمسة عشر ثلثًا، أكل منها ثمانية، وبقى له سبعة أكلها صاحب الدراهم، وأكل لك واحدًا من تسعة، فلك واحد بواحدك، وله سبعة، فقال الرجل: رضيت الآن.

وأخرج ابن شيبة فى المصنف عن عطاء، قال: أتى على برجل، وشهد عليه رجلان

أنه سرق، فأخذ فى شىء من أمور الناس، وتهدد شهود الزور، وقال: لا أوتى بشاهد زور إلا فعلت به كذا وكذا، ثم طلب الشاهدين، فلم يجدهما، فخلى سبيله.

وقال أبو القاسم الزجاجى فى أماليه: حدثنا أبو جعفر محمد بن رستم الطبرى، حدثنا أبو حاتم السجستانى، حدثنى يعقوب بن إسحاق الحضرمى، حدثنا سعيد بن سلم الباهلى، حدثنا أبى، عن جدى، عن أبى الأسود الدؤلى ـ أو قال: عن جدى أبى الأسود، عن أبيه ـ قال: دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فرأيته مطرقًا مفكرًا، فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: إنى سمعت ببلدكم هذا لحنًا فأردت أن أصنع كتابًا فى أصول العربية، فقلت: إن فعلت هذا أحييتنا، وبقيت فينا هذه اللغة. ثم أتيته بعد ثلاث، فألقى إلىَّ صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، الكلمة اسم، وفعل، وحرف؛ فالاسم: ما أنبأ عن المسمى، والفعل: ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف: ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل، ثم قال: تتبعه وزد فيه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشىء ليس بظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل العلماء فى معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر. قال أبو الأسود. فجمعت منه أشياء، وعرضتها عليه، فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت منها: إنّ وأنّ، وليت، ولعل، وكأن، ولم أذكر لكن، فقال لى: لم تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها، فقال: بل هى منها، فزدها فيها.

وأخرج ابن عساكر عن ربيعة بن ناجد، قال: قال علىّ: كونوا فى الناس كالنحلة فى الطير، إنه ليس فى الطير شىء إلا وهو يستضعفها، لو يعلم الطير ما فى أجوافها من البركة لم يفعلوا ذلك بها، خالطوا الناس بألسنتكم وأجسادكم، وزايلوهم بأعمالكم وقلوبكم، فإن للمرء ما اكتسب، وهو يوم القيامة مع من أحب.

وأخرج عن علىّ قال: كونوا بقبول العمل أشد اهتمامًا منكم بالعمل، فإنه لن يقل عمل مع التقوى، وكيف يقل عمل يتقبل؟

وأخرج عن يحيى بن جعدة قال: قال على بن أبى طالب: يا حملة القرآن اعملوا به، فإنما العالم من علم ثم عمل بما علم، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف عملهم علمهم،

يجلسون حلقًا فيباهى بعضهم بعضًا، حتى إن الرجل يغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم فى مجالسهم تلك إلى الله.

وأخرج عن علىّ أنه أتاه رجل فأثنى عليه فأطراه، وكان قد بلغه عنه قبل ذلك، فقال له علىّ: إنى لست كما تقول، وأنا فوق ما فى نفسك.

وأخرج عن علىّ قال: جزاء المعصية الوهن فى العبادة، والضيق فى المعيشة، والنقص فى اللذة. قيل: وما النقص فى اللذة؟ قال: لا ينال شهوة حلال إلا جاءه ما ينغصه إياها.

فصل

وأما كلامه فى تفسير القرآن فكثير، وهو مستوفى فى كتابنا التفسير المسند بأسانيده، وقد أخرج ابن سعد عن علىّ قال: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت، وعلى من نزلت، إن ربى وهب لى قلبًا عقولاً، ولسانًا صادقًا ناطقًا.

وأخرج ابن سعد وغيره عن أبى الطفيل، قال: قال علىّ: سلونى عن كتاب الله، فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار، وفى سهل أم فى جبل.

***

(٢) الحسن بن على
(٣ ـ ٥٠ هـ)

كان الإمام بعد على بن أبى طالب ابنه الحسن، ابن سيدة نساء العالمين فاطمة بنت محمّد سيد المرسلين صلّى الله عليه وآله الطاهرين.

كنيته أبو محمّد، ولد بالمدينة ليلة النّصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة، وجاءت به فاطمة إلى النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم يوم السابع من مولده، فسمّاه حسنًا وعقّ عنه كبشًا.

وكان الحسن أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم خلْقًا وسؤددًا وهديًا، روى ذلك جماعةٌ منهم معمر عن الزهرى عن أنس بن مالك قال: لم يكنْ أحدٌ أشبه برسول الله صلى الله عليه وآله من الحسن بن على عليهما السّلام ـ أخرجه البخارى.

وروى إبراهيم بن علىّ الرافعى، عن أبيه عن جدّته زينب بنت أبى رافع قال: أتت فاطمة بابنيها الحسن والحسين إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فى شكواه التى توفّى فيها فقال: **«أمّا الحسن فإنّ له هدْى وسؤددى وأمّا الحسين فإنّ له جودى وشجاعتى»**.

وأخرج الشيخان عن البراء قال: رأيت النبى ﷺ والحسن [ابن على] على عاتقه وهو يقول: **«اللهم إنى أحبّه فأحبّه»**.

وأخرج البخارى عن أبى بكر قال: سمعت النبى ـ ﷺ ـ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة، ويقول: **«إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»**.

وأخرج البخارى عن ابن عمر قال: قال النبى ـ ﷺ ـ: **«هما ريْحانتاى من الدنيا»**، يعنى الحسن والحسين.

وأخرج الترمذى عن أسامة بن زيد، قال: رأيت النبى ـ ﷺ ـ والحسن والحسين على وركيْه فقال: **«هذان ابناى وابنا ابنتى، اللهم إنى أحبهما فأحبّهما وأحبّ من يحبهما»**.

وأخرج عن أنس قال : سئل النبى ـ ﷺ ـ: أى أهل بيتك أحبّ إليك؟ قال : **«الحسن والحسين»**.

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال : أقْبل النبى ـ ﷺ ـ وقد حمل الحسن على رقبته، فلقيه رجل فقال: نعم المركب ركبْت يا غلام، فقال النبى عليه الصلاة والسلام: **«ونعم الراكب هو»**.

خلافته

كان الحسن بن على وصى أبيه أمير المؤمنين، صلوات الله عليهما، على أهله وولده وأصحابه، ووصّاه بالنّظر فى وقوفه وصدقاته.

ولما قبض أمير المؤمنين عليه السلام، خطب النّاس الحسن عليه السلام وذكر حقّه، فبايعه أصحاب أبيه على حرب منْ حارب وسلْم منْ سالم:

خطب الحسن بن على عليهما السّلام صبيحة اللّيلة الّتى قبض فيها أمير المؤمنين عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ قال:

لقد قبض فى هذه الليلة رجلٌ لم يسبقْه الأولون بعمل ولا يدركه الآخرون بعمل، لقد كان يجاهد مع رسول اللّه فيقيه بنفسه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يوجّهه برايته فيكنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتّى يفتح الله على يديه، ولقد توفّى عليه السلام فى الليلة التى عرج فيها بعيسى ابن مريم عليه السلام، وفيها قبض يوشع بن نون وصى موسى، وما خلّف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درْهم فضلتْ من عطائه، أراد أنْ يبتاع بها خادمًا لأهله ثمّ خنقتْه العبرة فبكى وبكى النّاس معه.

ثمّ قال: أنا ابن البشير، أنا ابن النّذير، أنا ابن الدّاعى إلى الله بإذنه، أنا ابن السّراج المنير، أنا من أهل بيت أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرًا، أنا من أهل بيت افترض الله حبّهم فى كتابه فقال عزّ وجلّ: ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ(٣٢)** ﴾ [الشورى: ٣٢]. فالحسنة مودّتنا أهل البيت.

ثم جلس، فقام عبد الله بن عباسٍ رحمة الله عليهما بين يديه فقال:

معاشر الناس، هذا ابن نبيكم ووصى إمامكم فبايعوه.

فاستجاب له الناس وقالوا: ما أحبه إلينا وأوجب حقه علينا. وتبادروا إلى البيعة له بالخلافة، وذلك فى يوم الجمعة الحادى والعشرين من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة. فرتّب العمال وأمر الأمراء، وأنفذ عبد الله بن العباس رضي الله عنه إلى البصرة، ونظر فى الأمور.

ولّما بلغ معاوية بن أبى سفيان وفاة أمير المؤمنين عليه السلام وبيعة النّاس الحسن عليه السلام، دسّ رجلاً من حمْير إلى الكوفة، ورجلاً من بلقين إلى البصرة، ليكتبا إليه بالأخبار ويفسدا على الحسن عليه السلام الأمور. فعرف ذلك الحسن عليه السلام فكتب إلى معاوية:

أما بعد، فإنك دسست الرجال للاحتيال والاغتيال، وأرصدت العيون كأنك تحب اللقاء وما أوشك ذلك فتوقعه إن شاء الله. وبلغنى أنك شمت بما لا يشمت به ذوو الحجى [اغتيال علىّ عليه السلام]، وإنما مثلك فى ذلك كما قال الأول:

فقلْ للذى يبْنى خلاف الذى مضى تجهزْ لأخرى مثْلها فكأنْ قد

فإنّا ومنْ قدْ مات منّا لكالذى يروح فيمسى فى المبيت ليغْتدى

ولنقرأ معًا ما ذكره خالد محمد خالد[1]:

يقول «الحسن البصرى» رضي الله عنه:

استقبل والله الحسن بن على معاوية بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: إنى لأرى كتائب، لا تولى حتى تقتل أقرانها، فقال معاوية: إذا قتل هؤلاء أولئك، فمن لى بأمور الناس؟.

ورغم ما كان بأهل الكوفة من تفسخ وتردد، فقد كان تحت تصرف «الحسن» حين آثر السلام أربعون ألف مقاتل، يشكلون جبهة واحدة، قوية وصامدة.. تحت إمرة رجل من أعظم رجال الإسلام وقواده ـ ذلكم هو: «قيس بن سعد بن عبادة»..

(١) أبناء الرسول فى كربلاء.

ولقد كانوا مصممين على مواصلة الحرب ضد معاوية تصميمًا حمل بعضهم على مجابهة «الحسن» حين رأوه يعتزم الصلح وإقرار السلام مجابهة قاسية وعنيفة رغم حبهم له وتوقيرهم إياه.

هو إذن لم يؤثر السلام على ضعف ولا عن عجز.

ولم تكن الظروف العسيرة التى تسلم الخلافة فيها لتجاوز قدرها فى كونها مجرد «موضوع» لتفكيره فى السلام.

أما «مصدر» تفكيره فى السلام فكان طبيعته وخصاله.

وهكذا قرر أن يعرض، بل أن يفرض السلام على معاوية..

كان «معاوية» قد تحرك بجيشه من الشام قاصدًا الكوفة.. عندما علم باستشهاد الإمام واستخلاف الحسن..

وكان الحسن قد خرج على رأس جيشه للقائه.

وإذ هم فى طريقهم إلى المدائن، نهض بين صفوف جيشه وقال:

إنى قد أصبحت، لا أحمل لمسلم ضغينة:

وإنى ناظر إليكم، نظرى إلى نفسى، وقد رأيت رأيًا، فلا تردوا على رأيى:

إن الذى تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة..!!

وثار الجيش ـ كما ذكرنا من قبل ـ لكنه كان قد وسد عزمه على حقن الدماء.

وكان معاوية من جانبه يتوق للسلام توق الغريق إلى زورق النجاة..

فأرسل مبعوثين إلى المدائن للتفاوض مع «الحسن»، وكانا عبد الرحمن بن سمرة.. وعبد الله بن عامر.. أبلغهما «الحسن» شروطه التى لم يكد معاوية يسمعها، حتى تقبلها فى غير تردد أو تساؤل.

وتركزت شروط «الحسن» للصلح فى هذه البنود الأربعة:

أولاً: أن ترجع الخلافة بعد معاوية إلى المسلمين؛ حيث يختارون بمشيئتهم الحرة من يرونه أصلح لقيادتهم وأجدر.

ثانيًا: ألا يؤخذ الذين ناصروه وناصروا أباه الإمام من قبل بما صنعوا ضد معاوية، وألا يحرم أحد منهم حقه وعطاءه.

ثالثًا: أن يكف الأمويون عن حملة السباب واللعن التى يقترفونها ضد الإمام، ويشجعون عليها..

رابعًا: أن يكون عطاؤه وعطاء أخيه «الحسين» وافرًا وجزيلاً. ولقد حدد بنفسه مقدار هذا العطاء.

وإذا كان هناك من بين هذه الشروط ما قد يلتبس علينا أمره، ويحتاج إلى مناقشة وتفسير فذلكم الشرط الرابع والأخير.

لقد يبدو غريبًا أن يفرط رجل مثل «الحسن» بن على، وحفيد الرسول ﷺ فى طلب عطاء كثير له ولأخيه.

ولكن، كما يقال: إذا عرف السبب، بطل العجب..

وحسبنا أن نعرف فيم كان ينفق «الحسنان» أموالهما لندرك على الفور الحكمة فى هذا الاشتراط.

وقبل هذا، علينا أن نذكر أن ميزانية الدولة الإسلامية، كانت أيامئذ قد بلغت مدى هائلاً من الكفاية والثراء.

وبدأ ذلك النمو المطرد منذ فتوح الإسلام فى عهد «عمر».

وفى عهد معاوية، كانت أموال غزيرة تنفق وتبعثر فى سبيل دعم حكمه وتركز الولاء له.

بينما كان «الإمام علىّ» وهو خليفة مسئول فى العراق يعطى المسلمين حقوقهم من بيت المال بالسوية، رافضًا أى تمييز أو سرف..!! حقّا لقد أغضب بعض أنصاره، حين رفض أن يتألف الناس بالمال، ويختص بعض القبائل بأكثر من حقها، قائلاً عبارته المأثورة:

«أتأمروننى أن أطلب النصر بالجور»؟!

والآن، بعد أن يتصالح الحسن ومعاوية ويصبح أمر الخلافة كله لمعاوية، فلن يكون هناك سوى بيت مال واحد هو الذى يشرف عليه معاوية بحكم سلطته وسلطانه.

و«معاوية» يعطى الأموال وفق مقاييسه الخاصة..

لابد للحسن إذن أن يتحوط لهذا الاحتمال..

وهنا يفضى بنا الحديث إلى حديث نعرف أين كان ينفق «الحسن والحسين» أموالهما..

لقد كانا يعودان بالكثير منها على نفر من الذين فقدوا ثرواتهم فى سبيل القضية التى ناصروا فيها الإمام.

وكانا يغدقان برهما ونداهما على أولى الأرحام، وعلى الفقراء والمساكين..

لقد انفرد «الحسن» بأنه الرجل الذى قاسم الله ماله ثلاث مرات.. وخرج عنه كله مرتين..!!

ورجل هذه شيمته، لا يطلب المال ليترف به، إنما يطلبه ليؤدى به حقوقًا كثيرة، أهونها كفالة الأرامل اللائى استشهد أزواجهن والأيتام الذين استشهد آباؤهم وهم يقاتلون تحت راية الإمام..!!

فمن أجل تلك الحقوق، ومن أجل شغفه بالخير والبر، اشترط لنفسه ولأخيه وفرة العطاء..

وحسبنا فى هذا المقام شهادة «معاوية» نفسه، فذات يوم أعد أحمال الهدايا التى كان يرسلها بين الحين والحين لصفوة الصحابة فى مكة والمدينة.

وبينما القافلة تتهيأ للسفر، نظر معاوية فيمن حوله وقال لهم: إن شئتم أخبرتكم بما يصنع القوم بهذه الهدايا..

ثم راح يسمى بعض الأسماء، ويسوق الحديث عنها، حتى جاء ذكر «الحسن والحسين» فقال:

. . وأما الحسن، فلعله يدع لزوجاته بعض الطيب، ثم يترك لمن حوله كل شيء . . !!

وأما الحسين فيبدأ بأيتام الذين قتلوا مع أبيه فى صفين، فإن بقى بعد ذلك شيء نحر به الجزر، وسقى به اللبن . . !!

أجل . . هذه شهادة «معاوية» . . وفيها فصل الخطاب!!

ومن فصل الخطاب أيضًا، أن العطاء الجزيل الذى فرض لهما، لم يكن يكفيهما، مع أنهما لم يعرف عنهما قط عيش المترفين ولا حياة المسرفين!!

لقد تراكم على الحسين دين ثقيل، وانتهز معاوية الفرصة فعرض عليه قدرًا كبيرًا من المال يقضى به ديونه، نظير بيعه عين ماء كانت للإمام علىّ بالمدينة، كان الإمام قد أهداها [أهدى ماءها] فقراء المدينة وأهلها، يرتوون منها بغير حساب . . ورفض الحسين هذا العرض . .

ففيما إذن كانت هذه الديون رغم وفرة العطاء لقوم لا يحيون فى ترف ولا فى سرف . . ؟!

إنها كانت بسبب حقوق مذخورة، وعطايا مبرورة تعودها الكرام، أبناء الكرام . . !

قبل معاوية شروط الصلح من فوره، وتنازل له الحسن عن الخلافة وسارع معاوية إلى الكوفة ليتلقى بيعة أهل العراق . .

وفى الجمع الحاشد من المسلمين، دعا الحسن لإلقاء كلمة، فوقف الحسن والأبصار شاخصة إليه، والأنفاس معلقة بشفتيه اللتين لا يدرى أحد عن أى نوع من القول ستنفرجان.

وجاءت كلماته فى تلك المناسبة على وفاق سعيد ومجيد مع صاحبها العظيم . . !!

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

أيها الناس . .

إن الله هداكم بأولنا . . وحقن دماءكم بآخرنا . . ألا إن أكيس الكيس التقى،

وإن أعجز العجز الفجور . . وإن هذا الأمر الذى اختلفت فيه ومعاوية، إما أن يكون أحق به منى، فقد تركته له . .

وإما أن أكون أحق به منه فقد تركته لله عز وجل، ولخير أمة محمد ﷺ وحقن دمائها . . .

ثم التفت بمعاوية وقال :

﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١)﴾ [الأنبياء : ١١١] .

إن العظمة الإنسانية لتكشف عن أصالتها فى مثل هذه المواقف وبمثل هذه الكلمات . . حيث يلتقى الصدق، والقوة، والترفع، والحكمة، أسعد لقاء . . !!

ومضى كل إلى سبيله . . !!

معاوية إلى الشام عاصمة ملكه العريض . . والحسن إلى المدينة، قرير العين بما حقن من دماء، عظيم الغنم بما بذل من فداء . . مردداً كلماته المضيئة هذه :

لقد كانت جماجم العرب بيدى فى العراق، تسالم من سالمت . . وتحارب من حاربت . . ثم تركتها ابتغاء وجه الله . . !!

ولقد وفى بعهده مع معاوية . . ووفى بالعهد معه أخوه الحسين الذى كان قبل إبرام الصلح من أشد معارضيه .

ترى، هل سيفى معاوية؟ أم أن إغراء السلطة المطلقة سيجشمه مشقة الوفاء . . !!

على أية حال، فقد أدى الحسن ما اعتقده واجبًا، وأعطى من ذات نفسه ما هو أهل له .

لقد ترك للآخرين دنياهم، وعكف هو على الطاعة، والعبادة والخير . .

عابداً، يحب الله ويخشاه، ويخرج إلى الحج من المدينة إلى مكة أعوامًا كثيرة ماشيًا على قدميه والنجائب تقاد بين يديه، حتى إذا سئل عن سبب هذا الإجهاد لنفسه أجاب :

إنى أستحى أن ألقى ربى، ولم أمش على قدمى إلى بيته..

جواداً: لم يكن يبقى من ماله شيئًا.. لا يعرف مكروبًا إلا فرج كربته، ولا غارمًا إلا قضى دينه..

سيداً، لا يعرف الدنية ولا يقبلها، ولا يعرف السوء طريقا إلى لسانه ومقاله..

يقول «محمد بن إسحاق».

ما رأيت أحداً كان إذا تحدث تمنيت ألا يسكت، مثل الحسن بن على.. وما سمعت منه كلمة سوء قط.. وإن أشد كلمة سمعتها منه، هى تلك التى قالها حين وقعت خصومة بينه وبين عمرو بن عثمان، فقال الحسن: ليس له عندنا إلا ما رغم أنفه.. تلك أشد كلمة سمعته يقولها..!!

ولقد تحدث رضي الله عنه راسمًا للناس صورة المؤمن المثالى الرشيد، فقال:

«إنه من تصغر فى عينه الدنيا ويخرج على سلطان بطنه، وفرجه، وجهله..

لا يسخط ولا يتبرم..

إذا جالس العلماء، كان على أن يسمع أحرص منه على أن يتكلم.. وإذا غلب على الكلام، لم يغلب على الصمت..

لا يشارك فى ادعاء ولا يدخل فى مراء..

لا يغفل عن إخوانه، ولا يختص نفسه بخير دونهم.

وإذا تردد بين أمرين، لا يدرى أيهما أقرب إلى الحق. نظر أيهما أقرب من هواه، فخالفه واتقاه»..!!

هذه خلاصة لدستور ومنهاج نفسه، أفلا يكون قرير العين إذن بهذا السلام الذى سيوفر له فرصة العكوف على فضائله ومزاياه ينميها ويزكيها..؟!بلى.. ولقد استقر وأخوه وآل بيتهما بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم..

ولم تكد تنزاح عن الناس فى شتى الأقطار غمرات ما كانوا فيه من خلاف وصراع، حتى راحت أرواحهم تهفو نحو المدينة، وخواطرهم تطوف من قريب وبعيد حول ريحانتى رسول الله ﷺ . .

ومع مرور الأيام، كان تطلع المسلمين إلى المدينة بما فيها من هدى ونور، يفوق تطلعهم إلى دمشق رغم ما فيها من دنيا وإغراء . .

وراحت مجالسهم وندواتهم فى كل بلد تردد ما نقله الثقات من أصحاب الرسول ﷺ عن حبه لابنيه الحسن، والحسين .

كان الناس يسمعون ويتناقلون أنباء هذا الحب العظيم الذى أضفاه عليهما جدهما النبى ﷺ ، فتكاد أفئدتهم تطير شوقًا إليهما . . حتى بعض أولئك الذين ناصبوهما من قبل العداء .

وراح المسلمون يرددون تلك الأحاديث التى تصور قدرهما، والتى حباهما الرسول بها كثيرًا :

«**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، بعد عيسى ويحيى عليهما السلام**» . .

«**هذان ابناى . . وابنا ابنتى . . اللهم إنى أحبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما**» . .

«**اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً**» . .

«**الحسن والحسين ريحانتاى من الدنيا**» .

«**حسين منى، وأنا من حسين، أحبَّ الله من أحب حسينا**» . .

وهكذا استولى على الناس ولع نبيل، بتتبع أنباء حياتهما ـ مذ أهلا على الحياة . .

كيف اختار الرسول ﷺ بنفسه اسميهما . . ؟ كيف كان يداعبهما . . ؟ كيف كان يحزن أن يسمع بكاءهما . . ؟

وراحت الوفود من كل مصر تشد رحالها إلى المدينة لتلقى بها ابنى رسول الله ﷺ وأحب الناس إليه، ولترشف من حكمة الحسين الذى عكف على إلقاء الدروس والعظات بمسجد الرسول ﷺ . .

وكانت حلقات درسه غاية فى الجلال والمهابة . .

وصفها معاوية نفسه، فقال:

«إذا دخلت مسجد رسول الله ﷺ، فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رءوسهم الطير، فتلك حلقة أبى عبد الله الحسين»..

كذلك أخذ الشاكون من ظلم ولاة معاوية واستهتارهم، يغذون السير إلى المدينة حاملين شكواهم إلى الحسن والحسين، فيدعوان الناس للصبر، ويرسلان لمعاوية بالنصح.

ترى، هل سيصبر بيت أبى سفيان على هذه المكانة المتصاعدة دومًا فى قلوب الناس للحسن وأخيه وأهل بيته..؟؟

كلا...

وذات يوم، دس للإمام الحسن السم فى الطعام..!!!

ويمسك التاريخ فى هذه الجريمة الدنيئة، بإحدى زوجاته وهى ـ جعدة بنت الأشعث بن قيس ـ كما يمسك بأصبع الغدر الأموى.. ومن عجب أن الأشعث بن قيس، والد جعدة ـ كان من أبرز أنصار الإمام علىّ.. ثم كانت له أثناء خدعة التحكيم وبعدها مواقف مشبوهة، ومحاولات مريبة.. كانت سببًا فى أكثر ما نزل بالإمام يومها من آلام وأخطار..!!

ومرض الحسن عليه السلام مرض الموت.

وبقيت أصالة فطرته وإيمانه متألقة، حتى تحت وطأة هذا الاغتيال الخفى، والسقم الفاجع الأليم!!

ففى علته هذه، أخذ أخوه الحسين يلح عليه كى يبوح له بمن يعتقد أو يظن أنه صاحب هذه الجريمة النكراء.

لكن حفيد الرسول العظيم ﷺ لا ينسى مبادئه تحت سحق آلامه فيسأل أخاه:

«وفيم سؤالك عمن سقانى السم..؟

أتريد أن تقاتلهم..؟

لا.. إنى أكل أمرهم إلى الله..!!».

انظروا . .

إنه حتى فى غمرة الموت لا تتخلف إرادته عن مبادئه، ويبقى رجل الأناة والسلام فيه، متفوقًا على الألم، وعلى الكراهية . . بل وعلى حقه العادل فى القصاص المشروع .

وراح يملأ أيامه الباقية بالصلاة والدعاء، مرددًا منها ذلك الدعاء الذى كان جده الرسول ﷺ قد علمه له منذ طفولته .

«**اللهم اهدنى فيمن هديت، وعافنى فيمن عافيت، وتولنى فيمن توليت، وبارك لى فيما أعطيت، وقنى شر ما قضيت، فإنك تقضى ولا يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا، وتعاليت فلك الحمد على ما قضيت، ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت . اللهم يا واصل المنقطعين أوصلنا إليك، اللهم لا تخزنا فى الدنيا ولا يوم العرض عليك، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة، وصل اللهم وسلم وبارك على محمد وآله وسلم**» . .

لقد هداك الله ـ أبا محمد ـ وعافاك، وتولاك، وبارك لك فيما أعطاك . .

وما تركت مقاديرك العظيمة جرعة السم تأخذ طريقها إليك إلا لنستكمل بالشهادة والفداء، شرف الانتماء إلى بيت المقربين والشهداء . . !!!

* * *

وبعد . . فقد آن لبطل السلام أن تُزفَّ إلى الجنة روحه .

ولكن لا تزال أمامنا وصية يريد أن يوصى بها، فقد كان شوقه عظيمًا لأن يدفن مع جده الرسول ﷺ . .

وكان قد استأذن السيدة عائشة رضى الله عنها فى ذلك، فأذنت له . .

والآن، وشمس حياته تميل للغروب قال لأخيه الحسين :

«إذا مت فادفنى مع النبى ﷺ، فإنى كنت قد طلبت ذلك من عائشة وأجابتنى . . وإذا عارضك بنو أمية، فلا تراجعهم وادفنى فى البقيع . . !» .

ومن أسف أن الذى توقعه قد حدث . . فرفض مروان بن الحكم أمير المدينة من قبل معاوية أن تحقق رغبة الشهيد المسجّى . . وأنزل إلى الشارع حرسه المسلح فى خسة ودناءة تليقان بمروان، وبمن على شاكلة مروان . . !!

ورأى الحسين رضي الله عنه، فانتضى سلاحه، وصمم على إنفاذ وصية أخيه . .

لكن نفرًا من الصحابة الأجلاء ذكروه بالفقرة الأخيرة من الوصية وحملوه عليها :

«فإن منعوك، فلا تراجعهم، وادفنى فى البقيع» . .

* * *

وشرف ثرى البقيع بهذا الضيف المجيد . .

وآبت إلى وطنها فى جنات الخلد روح السيد . . وروح الشهيد!! . .

* * *

وفى رواية أخرى، قال اليعقوبى فى تاريخه :

وفاة الحسن بن على

وتوفى الحسن بن علىّ فى شهر ربيع الأول سنة ٤٩هـ، ولما حضرته الوفاة قال لأخيه الحسين : يا أخى إن هذه آخر ثلاث مرار سقيت فيها السم، ولم أسقه مثل مرتى هذه، وأنا ميت من يومى، فإذا أنا مت فادفنى مع رسول الله، فما أحد أولى بقربه منى، إلا أن تمنع من ذلك فلا تسفك فيه محجمة دم .

ولما لف فى أكفانه، قال محمد بن الحنفية : رحمك الله أبا محمد، فوالله لئن عزت حياتك لقد هدت وفاتك، ونعم الروح روح عمر به بدنك، ونعم البدن بدن ضمه كفنك، لم لا يكون كذلك، وأنت سليل الهدى، وحلف أهل التقوى، وخامس أصحاب الكساء، غذتك كف الحق، وربيت فى حجر الإسلام، وأرضعتك ثديا الإيمان، فطب حيًا وميتًا، فعليك السلام ورحمة الله، وإن كانت أنفسنا غير قالية لحياتك، ولا شاكة فى الخيار لك .

obeikandl.com

ثم أخرج نعشه يراد به قبر رسول الله، فركب مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، فمنعا من ذلك، حتى كادت تقع فتنة.

واجتمع مع الحسين بن علىّ جماعة وخلق من الناس، فقالوا له: دعنا وآل مروان، فوالله ما هم عندنا كأكلة رأس. فقال: إن أخى أوصانى أن لا أريق فيه محجمة دم. فدفن الحسن فى البقيع، وكانت سنه سبعًا وأربعين سنة، وتوفى الحسن بن علىّ وابن عباس عند معاوية، فدخل عليه لما أتاه نعى الحسن، فقال له: يا بن عباس! إن حسنًا مات. قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، على عظم الخطب وجليل المصاب، أما والله يا معاوية لئن كان الحسن مات، فما ينسئ موته فى أجلك، ولا يسد جسمه حفرتك، ولقد مضى إلى خير وبقيت على شر. قال: لا أحسبه قد خلف إلا صبية صغارًا. قال: كلنا كان صغيرًا فكبر. قال: بخ بخ، يا بن عباس، أصبحت سيد قومك. قال: أما ما أبقى الله أبا عبد الله الحسين بن رسول الله، فلا.

وكان الحسن بن علىّ جوادًا كريمًا وأشبه برسول الله خَلقًا وخُلقًا..

وحج الحسن خمس عشرة حجة ماشيًا، وخرج من ماله مرتين، وقاسم الله عز وجل ثلاث مرات، حتى كان يعطى نعلاً ويمسك نعلاً، ويعطى خفّا ويمسك أخرى.

وقال معاوية للحسن: يا أبا محمد، ثلاث خلال ما وجدت من يخبرنى عنهن. قال: وما هن؟ قال: المروءة، والكرم، والنجدة. قال: أما المروءة فإصلاح الرجل أمر دينه، وحسن قيامه على ماله، ولين الكف، وإفشاء السلام والتحبب إلى الناس. والكرم العطية قبل السؤال، والتبرع بالمعروف، والإطعام فى المحل، ثم النجدة، الذب عن الجار والمحاماة فى الكريهة والصبر عند الشدائد.

وقال جابر: سمعت الحسن يقول: مكارم الأخلاق عشر: صدق اللسان، وصدق البأس، وإعطاء السائل، وحسن الخلق، والمكافأة بالصنائع، وصلة الرحم، والتذمم على الجار، ومعرفة الحق للصاحب، وقرى الضيف، ورأسهن الحياء.

وقيل للحسن: من أحسن الناس عيشًا؟ قال: من أشرك الناس فى عيشه.

وقيل: من شر الناس عيشًا؟ قال: من لا يعيش فى عيشه أحد.

وقال الحسن: فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها، وأشد من المصيبة سوء الخلق، والعبادة انتظار الفرج.

ودعا الحسن بن علىّ بنيه وبنى أخيه، فقال: يا بنى وبنى أخى! إنكم صغار قوم، وتوشكون أن تكونوا كبار قوم آخرين، فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه أو يحفظه، فليكتبه وليجعله فى بيته.

وقال رجل للحسن: إنى أخاف الموت! قال: ذاك أنك أخرت مالك، ولو قدمته لسرك أن تلحق به.

وقال له معاوية يومًا: ما يجب لنا فى سلطاننا؟ قال: ما قال سليمان بن داود. قال معاوية: وما قال سليمان بن داود؟ قال: قال لبعض أصحابه: أتدرى ما يجب على الملك فى ملكه، وما لا يضره؟ إذا أدى الذى عليه منه، وإذا خاف الله فى السر والعلانية، وعدل فى الغضب والرضى، وقصد فى الفقر والغنى، ولم يأخذ الأموال غصبًا، ولم يأكلها إسرافًا وبدارًا، لم يضره ما تمتع به من دنياه، إذا كان ذلك من خلته.

وقال الحسن: كان رسول الله إذا سأله أحد حاجة لم يرده إلا بها وبميسور من القول.

وكان للحسن من الولد ثمانية ذكور، وهم: الحسن بن الحسن، وأمه خولة بنت منظور الفزارية، وزيد بن الحسن، وأمه أم بشير بنت أبى مسعود الأنصارى الخزرجى، وعمر والقاسم وأبو بكر وعبد الرحمن لأمهات أولاد شتى، وطلحة وعبيد الله.

ولما توفى الحسن وبلغ الشيعة ذلك، اجتمعوا بالكوفة فى دار سليمان بن صرد، وفيهم بنو جعدة بن هبيرة، فكتبوا إلى الحسين بن علىّ يعزونه على مصابه بالحسن: بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن علىّ من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين. سلام عليك، فإنا نحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فقد بلغنا وفاة الحسن بن علىّ، سلام الله عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا، غفر الله ذنبه وتقبل حسناته، ، وضاعف لك الأجر فى المصاب به وجبر بك المصيبة من بعده، فعند الله نحتسبه، وإنا لله وإنا إليه راجعون. ما أعظم ما أصيبت به هذه الأمة عامة، وأنت وهذه الشيعة خاصة، بهلاك ابن الوصى وابن بنت النبى، علم الهدى، ونور البلاد، المرجو لإقامة الدين وإعادة سير الصالحين، فاصبر رحمك الله على ما أصابك، إن ذلك لمن

عزم الأمور، فإن فيك خلفًا ممن كان قبلك، وإن الله يؤتى رشده من يهدى بهديك، ونحن شيعتك المصابة بمصيبتك، المحزونة بحزنك، المسرورة بسرورك، السائرة بسيرتك، المنتظرة لأمرك، شرح الله صدرك، ورفع ذكرك، وأعظم أجرك، وغفر ذنبك، ورد عليك حقك.

وبايع معاوية لابنه يزيد بولاية العهد، بعد وفاة الحسن بن علىّ، ولم يتخلف عن البيعة إلا أربعة نفر: الحسين بن علىّ، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبى بكر، وعبد الله بن الزبير. وقال عبد الله بن عمر: نبايع من يلعب بالقرود والكلاب، ويشرب الخمر، ويظهر الفسوق! ما حجتنا عند الله! وقال عبد الله بن الزبير: لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وقد أفسد علينا ديننا.

وقال السيوطى[1]:

«قال ابن عبد البر: وروينا من وجوه أنه لما احتضر قال لأخيه:

كنت قد طلبت من عائشة أن أدفن مع رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقالت: نعم، فإذا مت فاطلب ذلك إليها، وما أظن القوم إلا سيمنعونك، فإن فعلوا فلا تراجعهم. فلما مات أتى الحسين إلى أم المؤمنين عائشة فقالت: نعم وكرامة، فمنعهم مروان، فلبس الحسين ومن معه السلاح حتى ردّه أبو هريرة، ثم دفن بالبقيع إلى جنب أمه رضى الله عنها».

***

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٩.

obeikandl.com

(٣) الحسين بن على
(٥ ـ ٦١ هـ)

تعرض أهل البيت عليهم السلام ـ وما زالوا يتعرضون ـ لحملات التشويه من قبل أولئك الذين يريدون منع الناس من التأسى بسيرتهم العطرة، ولم يسلم من هذا التشويه أو الطمس أحد منهم، وحسبنا ما عرضناه من قيام معاوية بن أبى سفيان بسب الإمام علىّ عليه السلام ولعنه على المنابر، وقتل كل من اعترض على ذلك فى السر أو فى العلن.

الإمام الحسين عليه السلام ثالث أئمة أهل البيت، كان واحدًا ممن تعرضوا لهذا التزييف الإعلامى من قبل أولئك الذين باعوا دينهم لقاء دنياهم، فتراهم يحاولون إطفاء ضوء الشمس فى رائعة النهار.

إنهم ما زالوا يرددون على مسامع الناس الكلمات نفسها، مثل لماذا خرج الإمام الحسين وقد نصحه فلان وعلان؟ ثم يقولون إن الإمام الحسين عليه السلام لم يحقق أى مصلحة من وراء خروجه، إلى آخر ذلك الكلام الغث.

التعرف على أسباب النهضة الحسينية أمر سهل وميسور للغاية، ويمكن لأى من هؤلاء أن يقرأ كتب التاريخ ليعرف حقيقة المأساة التى عاشتها الأمة كلها وليس أهل البيت بمفردهم، ويمكن للقارئ الكريم أن يسترجع السطور السابقة ليعرف حقيقة المناخ المسموم الذى سبق النهضة الحسينية، ومن أراد أن يستزيد فليقرأ كتابنا (*على خطى الحسين*) أما نحن فنلخص فى هذا الكتاب ملامح رحلة الآلام التى عاشها أهل بيت النبوة.

الإمام الحسين عليه السلام خرج إلى العراق، وتحديدًا إلى أرض كربلاء التى اختارها لتكون مكانًا لاستشهاده، ولم يخرج على بنى أمية أو غيرهم، فهم من الأساس خارجون على القانون والشريعة الإسلامية، لكونهم غاصبين أمر المسلمين.

الإمام الحسين كان مقتولاً خرج أم لم يخرج، ولكنه اختار أن يخرج من مكة إلى المدينة، ومنها إلى أرض كربلاء ليستشهد ويدفن فيها، ويكون جسده الطاهر ودماؤه

بذرة الحرية والكرامة التى غرست فى تلك الأرض المباركة، ومعه تلك الكوكبة الطاهرة من أهل بيته وأصحابه.

خرج... وكان لا بد أن يخرج...

قتل وكان لا بد أن يقتل.. وشتان ما بين موت الكرام العظام، وموت الخراف اللئام.

الإمام الحسين بن علىّ عليهما السلام هو سيد الشهداء، والشهداء كما يقول الحق تبارك وتعالى ﴿**أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وهم أيضًا مصدر حياة لأمتهم ولمن يدينون بمبادئهم.

إن الاحتفاء بذكرى عاشوراء يوم استشهاد سيد الشهداء الحسين بن علىّ، هو إحياء لتلك القيم الأخلاقية العظيمة، ورفض لمنظومة الظلم والاستبداد.

الأئمة العظماء والشهداء هم من يجسد القيم والمبادئ التى أتى بها الإسلام إلى حياة وواقع، والمبادئ التى لا تجد من يطبقها ويعمل بها فى أرض الواقع تصبح مبادئ خيالية ولا قيمة لها، وهذا هو سر عظمة أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهذا هو سر تخلف وانحطاط مناوئيهم.

يقولون إن الإمام الحسين عليه السلام لم يكن مضطرّا للخروج، وكأنه كان بإمكانه أن يقول لا لبنى أمية ثم يعيش معززًا مكرمًا، بينما يحكى لنا التاريخ أن بنى أمية لم يكونوا ليرضوا بأقل من استعباد الجميع وسلب إرادتهم، وهم الذين اضطروه للخروج من المدينة إلى مكة ثم الخروج من مكة لئلا يقتل بها، وهم الذين عقدوا العزم على الثأر من أهل المدينة عام ٦٣ للهجرة، واستباحوها فى واقعة الحرة، ثم خرجوا منها ليهدموا الكعبة المشرفة.

ولنقرأ معًا ما ذكره خالد محمد خالد[١] عن خروج الحسين:

إن للسلطة ضراوة لا تقاوم، إذا هى بسطت إغراءها ونفوذها على الحاكم، يرى فيها غنمًا لا تضحية.. وزهوًا لا واجبًا..

(١) أبناء الرسول فى كربلاء.

ونحن لا نريد الطعن فى معاوية، فإن منهجنا أن نحترم كل الاحترام من صحب رسول الله ﷺ وصلى وراءه. وجلس بين يديه.. وقاتل تحت لوائه.. مفوضين أمره فيما يكون له من خطأ إلى الله..

بيد أننا خلال قيامنا بواجبنا فى تحرى الحقيقة فى هذه القضية التى ندرسها، لا نملك إلا إبداء الأسف الشديد، والجزع الأشد، لهذا النهج الذى سار عليه مؤسس دولة الأمويين.. لا سيما حين اتخذ أفدح قراراته، وأكثرها ضراوة وبؤسًا.. ذلك هو أخذ البيعة لولده ـ يزيد ـ وفرضه على الدولة المسلمة وعلى الأمة المسلمة، الأمر الذى يعنينا الآن بحثه، والذى كان السبب المباشر والأوحد فى مأساة «كربلاء».. وفيما تلا «كربلاء» من أهوال شهدتها مكة وشهدتها المدينة على نحو أليم ووبيل.. هذه الأحداث التى كانت هى الأخرى سببًا مباشرًا فى ضياع الملك من بيت معاوية وذريته إلى الأبد بعد أربع سنوات من وفاته، ثم انتقال هذا الملك إلى بطن من بطون بنى أمية، أولئك هم بنو مروان.

لقد اهتزت أعطاف معاوية بالإمارة والملك، أربعين عامًا كاملة.. عشرين عامًا، أميرًا.. وعشرين عامًا، ملكًا..

أما كان يكفيه ذلك؟ ثم يترك الأمر من بعده لاختيار المسلمين، ليكون فى ذلك على الأقل وفاء بالعهد الذى أبرمه مع الحسن رضي الله عنه، والذى كان أهم شروطه للتنازل له عن الخلافة..؟؟

إن ذلك لم يحدث.. ولقد قرر معاوية.. بتدبير منه، أو بإيحاء من بعض مشيريه، أو بهما معًا، أن يستبقى السلطان فى بيته وأسرته، واختار لذلك أبعد الناس عن الصلاحية للأمر، ولده يزيد..

فحين أحس خمود صحته، ودنو نهايته، شرع على عجل يفرض ـ يزيد ـ على الناس ويهيئ له مكانه..

وبدأ بالمدينة؛ حيث كان بها نفر جليل من بقية الصحابة..

ولم يكد واليه عليها، وقريبه فى الوقت نفسه ـ مروان بن الحكم ـ يعرض الأمر على المسلمين الذين احتشدوا فى المسجد الكبير، حتى جابهته معارضة

رهيبة، لقد وقف عبد الرحمن بن أبى بكر رضي الله عنه يقول لمروان:

«والله، ما الخيار أردتم لأمة محمد.. ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل..».

وتلاه الحسين رضي الله عنه فرفض فى كلمات قواطع هذا العبث بمصائر الإسلام والمسلمين.

وتلاه عبد الله بن الزبير رضي الله عنه فدمدم على مروان وعلى معاوية بكلمات كألسنة اللهب..!!

وأبلغ مروان المعارضة إلى معاوية، فلم يحمله ذلك على إعادة النظر فى قراره، بل دفعه إلى الإيغال فى سرعة إنجازه.

فأرسل إلى ولاته الآخرين على بقية الأمصار، آمرًا إياهم أن يسوقوا الوفود إلى الشام كى تبايع ليزيد..

وشهدت الشام مهزلة البيعة ومأساتها على نطاق واسع، بعد أن أدى الذهب والسيف دورهما فى حمل الناس على البيعة.

ولكن موقف «المدينة» ظل يؤرقه، فقرر السفر بشخصه إليها.

وهناك حاول إقناع زعماء المعارضة ـ عبد الله بن الزبير، والحسين بن علىّ، وعبد الله بن عمر ـ فلما أعيته الحيلة لجأ إلى القوة فى مظاهرة مسلحة عجيبة..!!

لكن الزعماء الثلاثة صمدوا، ولم يتحرك منهم لسان ببيعة.. وأمام مناورة الموت التى فاجأهم بها معاوية، لاذوا بالصمت، فاستغل هو صمتهم وأذاع فى الناس أنهم مبايعون..!!

لقد برر معاوية أخذه البيعة ليزيد بحرصه على عدم نشوب الخلاف والصراع من جديد بين المسلمين..

وإنه لتبرير يدينه أكثر مما يشفع له..!!

obeikandl.com

فلماذا خشى الصراع والفتنة إذا هو لم ينقل الملك إلى يزيد . . ولم يخشهما إذا هو وسد الأمر لغير أهله وسلم قيادة الدولة المسلمة إلى أكثر العالمين بعدًا عن الصلاحية لها، وهو يزيد . . ؟؟!!

تكشف ـ بوضوح ـ هذه النظرة عن أن معاوية كان ينظر إلى الأمر على أنه ـ كما قلنا من قبل ـ سلطان بنى أمية أكثر مما هو سلطان الإسلام وسلطان المسلمين . . !!

ووضع المسألة على هذا النحو ـ وهو وضع صحيح ـ يجعل المقاومة أمرًا محتومًا وقدرًا مقدورًا . .

ولقد بدأت المقاومة بامتناع الحسين وابن الزبير، وابن عمر، وابن أبى بكر، بالمدينة عن البيعة .

وبدأت بالتذمر الذى ملأ صفوف الجماهير فى كل مكان والذى ارتفع به الصوت داخل الأمويين أنفسهم الذين كانوا يشمئزون من يزيد، ويرون بين رجالهم من هو أحق وأجدر . . كذلك شاع على ألسنة الذين بايعوا من عامة الناس مكرهين .

ذلك أن يزيد كان شابًا عابثًا لاهيًا . . والتاريخ يصوره دائمًا بين بطانته، وهى بطانة سوء، يلهون، ويشربون، ويعربدون . .

وحتى حين أراد أن يضفى على سيرته بعض التصون والوقار، فأرسله إلى مكة حاجًا، لم يغنه ذلك شيئًا، فقد اصطحب يزيد معه لهوه وعبثه وبطانته . . !!

ويزيد، قبل هذا، وبعد هذا، تنقصه كل مقومات الرجل المناسب للمكان المناسب . . فهو مفلس إفلاسًا تامًا من كل ما كان لأبيه من دهاء، وشخصية، وذكاء، ومقدرة . . !

ففيم استخلافه . . ؟ وبأى رشد وأى ضمير، يفرض واحد هذا شأنه على الإسلام وعلى المسلمين؟!

ثم أين عهده مع الحسن رضي الله عنه على أن يترك الأمر بعده شورى، حيث يختار الناس من يرتضونه . ؟!

لكن معاوية فعلها ـ غفر الله لمعاوية . .

وفى العام الستين للهجرة مات، لينتقل الأمر من بعده إلى يزيد . . وبدأ يزيد عهده بإنفاذ الوصية التى تركها له أبوه قبيل وفاته :

«إنى لا أخاف عليك سوى أربعة رجال :

الحسين بن علىّ . . وعبد الله بن عمر . . وعبد الرحمن بن أبى بكر . . وعبد الله بن الزبير .

فأما الحسين بن علىّ، فإن أهل العراق لن يتركوه حتى يخرجوه إليهم، فإن فعل فظفرت به فاصفح عنه . .

وأما عبد الله بن عمر، فرجل قد وقذته العبادة، ولا يريد الخلافة إلا أن تأتيه عفواً . .

وأما عبد الرحمن بن أبى بكر، فليس له عند الناس ما يجعله يطمح إلى طلبها، أو يحاول التماسها إلا أن تأتيه عفواً .

وأما الذى سيجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك روغان الثعلب، حتى إذا أمكنته فرصة وثب عليك، فذلك هو عبد الله بن الزبير . . فإن فعل وظفرت به فقطعه إرباً إرباً، إلا أن يلتمس منك صلحاً . فإن فعل فاقبل منه، واحقن دماء قومك بجهدك . . وكف عاديتهم بنوالك . . وتغمدهم بحلمك . . » .

ترى، هل كان معاوية يعرف لابنه هذا جهداً، أو نوالاً، أو حلماً يعالج به الأمور . . ؟؟

على أية حال، فقد جلس يزيد حيث كان يجلس أبوه من قبل، وسيق الناس إليه يبايعونه ملكاً، بعد أن بايعوه من قبل أميراً . .

واهتز كيانه فزعاً، تحت ضغط مشاعره الوجلة لوجود الحسين وابن الزبير وابن أبى بكر وابن عمر بالمدينة، فكتب على الفور إلى عامله هناك ـ الوليد

ابن عتبة بن أبى سفيان ـ بهذا الأمر الحاسم :

« . . أما بعد، فخذ حسينًا، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر بالبيعة أخذًا شديداً، ليس فيه رخصة حتى يبايعوا، والسلام» . .

واستنجد الوليد بمشورة قريبه مروان، وكان مروان واليًا على المدينة من قبل، ثم سخط على قرار معاوية أخذه البيعة ليزيد، إذ كان يرى نفسه بحكم سنه ومشيخته فى بنى أمية أحق بها وأولى . .

ولخص مروان مشورته للوليد فى هذه الكلمات السوداء «أما ابن عمر، وابن أبى بكر، فلا أراهما يريان القتال . . ولكن عليك بالحسين وعبد الله بن الزبير، فإن بايعا، وإلا فاضرب أعناقهما قبل أن يذيع فى الناس نبأ موت معاوية، فيثب كل واحد منهما فى ناحية» . . !

هكذا، وبكل يسر واستهتار يطيح مروان بالرقاب ! !

اضرب أعناقهما . . ! !

هذا هونهج الذين اغتصبوا حق المسلمين فى خلافتهم، وأرادوا أن يجعلوه وقفًا على أنفسهم وعلى ذراريهم حتى آخر طفل فيهم وآخر رضيع . . ! !

ومروان هذا، الذى يشير بقطع الرقاب، هو الذى سينتقل إليه الملك بعد أربعة أعوام من ملك يزيد . . وهو الذى سيظل الملك فى عقبه حتى يجىء العباسيون بعد عشرات من السنين، لا نرى فيها وفى كل أولئك الحاكمين من هو للقداسة أهل سوى «عمر بن عبد العزيز» رضي الله عنه وأرضاه . . هذا الخليفة العادل الذى سيضج من مظالم قومه وعائلته، ويبرأ إلى الله منها . . ! !

ونعود إلى الوليد بن عتبة والى المدينة، فنراه يرسل فى طلب الحسين، وابن الزبير . .

وفى طريقهما إليه يسأل ابن الزبير الحسين :

ـ ترى فى أى أمر بعث إلينا هذه الساعة . . ؟

ويجيبه الحسين :

ـ أحسب أن معاوية قد مات . . وقد بعث إلينا للبيعة . . !

ويعودان أدراجهما دون أن يواصلا السير إلى الوليد .

فأما عبد الله بن الزبير فقد انتظر مجيء الليل ، ثم حمل متاعه ، وركب راحلته ، وسافر إلى مكة . .

وأما الحسين ، فيأخذ نفراً من أتباعه ، ويسير بهم إلى الوليد فى دار الإمارة ، ويأمرهم أن ينتظروه خارج الدار ، فإن سمعوا حواراً غاضباً بينه وبين الأمير اقتحموا الدار ليكونوا بجانب الحسين إذا أريد به السوء .

بيد أن الوليد فى هذا الموقف كان خيراً من ألف من طراز مروان .

ذلك أنه لم يكد ينهى إلى الحسين نبأ وفاة معاوية ، داعيًا إياه إلى بيعة يزيد ، حتى قال له الحسين رضي الله عنه :

«إن مثلى لا يعطى بيعته سرا» .

ولا نستبعد أن يكون الوليد ، قد أدرك ما فى كلمات الحسين من مناورة شريفة ، آثر أن يتغافل عنها ، حتى لا يلوث يديه بجريمة العدوان الذى أشار به مروان .

لذلك نراه ، حين أصبح فى اليوم التالى ، جاءه الخبر بأن الحسين رحل إلى مكة . . ولامه مروان على نبذ مشورته ، نراه يقول يومها لمروان :

«أتشير على بقتل الحسين بن فاطمة ، بنت رسول الله . . ؟؟ والله ، إن الذى يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان عند الله . . ! !» .

* * *

رحل الحسين إلى مكة . . ذلك البلد الحرام الذى يلتمس الناس فيه الأمن والملاذ . .

واصطحب معه أختيه السيدة زينب ، والسيدة أم كلثوم وإخوته أبا بكر ،

والعباس، وجعفر وأولاد أخيه الحسن وجميع من كان بالمدينة من أهل بيته، عدا أخاه محمد بن الحنفية الذى آثر البقاء بالمدينة.

وكان قد سبقه إلى مكة كما ذكرنا، عبد الله بن الزبير.

كذلك كان قد سبقه إليها حبر الأمة عبد الله بن عباس.

وفى مكة، استقر الحسين وآله.. وأقبل أهلها بل وأقبلت الوفود من خارجها على ابن بنت رسول الله ﷺ تلتمس منه الحكمة والهدى والنور.

ولقد كانت مكة آنئذ أنسب مكان يدبر فيه الحسين خواطره وتفكيره حول القضية الجليلة التى تشغله، والوضع الخطير الذى حاق بالمسلمين.

وهنا يستطيع الحسين أن يمد بصره فيرى الدار التى عاش فيها وبزغ منها جده العظيم «محمد رسول الله ﷺ» هاتفًا بكلمة الله، حاملاً معوله الرشيد فى وجه وثنية الحجر.. ووثنية البشر..!!

ويستطيع أن يمد بصره، فيرى «زمزم» التى حفرها جده عبد المطلب امتثالاً لرؤيا صادقة، والتى كانت لقريش حياة ورويّا، وصارت للمسلمين تراثًا ومنسكًا..

ويستطيع أن يمد بصره فيرى الدور التى خرج منها مهديون أبرار، آمنوا بالرسول ﷺ وآزروه فى دعوته ووحدته، وفى مقدمتها دار أبى بكر.. ثم يرى الدور التى خرج منها أولئك الذين سخروا من دعوته، واضطهدوا أهله وصحبه، وفى مقدمتها دار أبى سفيان..!

وهنا.. يستطيع أن يرى ويسمع الأصداء الصادقة الباهرة لصوت جده أبى طالب وهو يقول للرسول:

«يا بن أخى، ادع إلى سبيل ربك ما شئت، فوالله لا أسلمك إليهم أبدًا..».

ثم يقف إلى جواره كالطود مضحيًا براحته، وأمنه ومكانته بين قومه..

كما يسمع الأصداء الصادقة الباهرة لصوت جدته «خديجة» وهى تقول للرسول: و«الله لا يخزيك الله أبدًا»..

ثم تنهض إلى جواره فى وجه قريش واضعة كل ثرواتها وجاهها فى خدمة الدين الحق الجديد . .

وهنا . . يسمع الحسين بكل سمعه وقلبه كلمات جده الرسول الكريم ﷺ التى تركها للتاريخ الإنسانى بأسره قدوة ونبراسًا وهدى :

« . . والله ، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يقضيه الله ، أو أهلك دونه » . . !

أجل . . هنا سيسمع الحسين صداها . . ويتراءى له المشهد ، فيفجر فى نفسه بأسها ، ونضالها ، وتقاها . . !!

ولسوف يسأل نفسه : ما هذا الأمر الذى رفض جده النبى ﷺ أن يتخلى عنه ولو أوتى الشمس والقمر وما بينهما . . ؟؟

ويجيبه قلبه : إنه كلمة الله ودينه .

ويعود يسأل نفسه : وأين دين الله اليوم ، ومن الذى يحمل لواءه . . ؟؟

ويجيبه الواقع : إن دين الله اليوم فى محنة ، إنه يتحول إلى ملك عضوض . . وإن الذى يحمل لواءه اليوم طاغية عربيد اسمه ، يزيد . . !!

يعود يسأل نفسه : وما المصير . . ؟؟

ويجيبه وعيه ورشده : المصير عودة الجاهلية وسيادة الوثنية ، ودنو ساعة هذه الأمة حيث يرجع كل ما بنت وشادت ترابًا فى تراب . . !!

ألم يقل جدك الرسول عليه السلام :

« إذا وسد الأمر لغير أهله ، فانتظر الساعة » .

فها هو ذا قد وسد لغير أهله ، بل لشر أهله .

ويعود سائلاً نفسه وما واجبى الآن ؟ .

ويجيبه ضميره : المقاومة ، الآن ، وأبدًا . . حتى يفوز الحق ، أو تهلك دونه . . !!

على هذا النحو لا بد أن يكون الحسين قد أدار خواطره وتفكيره.

وفى رأينا أن كل حوافز الثورة على هذا الضلال كانت كامنة فى وعيه ووجدانه، وكانت وليدة إدراكه السديد لحق الدين عليه واستعداده للتضحية فى سبيله.

وليست نتيجة لموقف أهل الكوفة الذين أرسلوا إليه كتبهم ووفودهم يدعونه إليها ليبايعوه، وليسيروا تحت لوائه إلى مقاومة يزيد.

أجل.. ما كان الحسين ليدع دين الله ودنيا الناس ألعوبة فى يد يزيد..

بل كان سيبشر بالمقاومة، ويخلق ظروفها المواتية، ثم يضرب ضربتها العادلة.

وسواء دعاه أهل الكوفة أم لم يدعوه، فلقد كان يهتدى إلى مسئولياته بنور إيمانه وبصوت ضميره.. وليس بتحريض قوة خارجية..

ولقد عرفنا رأيه القديم فى صلح أخيه مع معاوية.. إذ كان يعارض هذا الصلح، معلنًا أن آل أبى سفيان لا عهد لهم ولا أمان.

فإذا كان هذا رأيه والخليفة بالأمس معاوية، فكيف يكون إذن والمستخلف اليوم يزيد..؟!

ثم إن خروجه من المدينة إلى مكة، ورفضه البيعة ليزيد يشكلان إعلانًا لمبدأ المقاومة.

فهو يعلم أن يزيد لن يتركه حتى يبايع.. وهو لن يبايع أبدًا. وإذًا ستكون المجابهة بينهما أمرًا محتومًا.

ثم إن للحسين طبيعة جياشة ثائرة، يربطها بالحق ولاء وثيق وعجيب، وتستمد من فضائل الدين العالية، ومن تراث حسبه العريق زادًا لا يفنى من الصمود والمثابرة!!

ولن يجد فى كيانه ذرة تصبر على رؤية يزيد بن معاوية يجلس حيث جلس من قبل ـ أبو بكر ـ وعمر ـ وعثمان ـ وعلى..!!

إن ذلك يعنى ضياع مقدسات عزيزة وغالية . .

وإذا كانت الطبول تدق فى دمشق ، معلنة قيام خلافة كاذبة لحفيد أبى سفيان .

فلا بد أن يجد الإسلام من يدفع عنه الكارثة . .

ولا بد أن يجد المسلمون من يدرأ عنهم الطوفان . . ! !

* * *

تلك هى القضية . .

وهذه حقيقتها التى تجلت أمام الحسين كفلق الصباح . . فهى ليست لغزاً ، يحتاج إلى مناقشات تبحث له عن حلول . .

ولا صفقة ، ترتبط اهتماماتها بمغنم أو مغرم .

كما أنها ليست طموحًا شخصيّا ، يحتاج إلى موازنة بين فرص النجاح واحتمالات الإخفاق .

إنها قضية الحق وحده . .

حق دين ، وحق أمة ، وحق دولة ، وحق مصير . . فإما أن ينتصر هذا الحق ، أو فليمت الأبرار دونه . .

ومن لقيادة الأبرار فى هذا المجال ، كأبى عبد الله الحسين . خير ابن لخير آباء . . وأكرم وارث لبيت التضحية والبذل والفداء . . ؟ !

إن ملايين المسلمين فى كل العصور والأزمان ، يصلون عليه فى صلواتهم آناء الليل وأطراف النهار .

أليس كل مسلم كان أو سيكون ، يختم صلاته قائلاً :

«التحيات المباركات والصلوات الطيبات لله . .

السلام عليك أيها النبى ، ورحمة الله وبركاته .

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . .

أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . .

obeikandl.com

اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد» . .

وأليس الحسين من أولئك الآل؟

أليس هو درتهم الفريدة والمجيدة . . ؟

إذن، فإن لهؤلاء الذين يصلون عليه عبر الزمان والأجيال حقّا عظيمًا سيقتضيه تضحيات عظيمة . ! !

ومتى تكون التضحية، إذا لم تكن اليوم، ودين المسلمين يتحول إلى «مزرعة أموية» . . وأمجادهم العظيمة يستولى عليها مخلوق عابث . . ومصايرهم الكبرى تمسك بها أيدى وصوليين جباة، وجلادين طغاة . . !

هكذا لم يكن للحسين بد من أن يقاوم، حتى لو لم يدعه من العراق داع، ولم يأته من الكوفة كتاب . . كل ما صنعته وفود الكوفة وكتبها له، أنها عجلت خروجه .

وهنا، لا بد أن ننفى عن تفكيرنا وهمًا ردده كثيرون، هو أن «الحسين» رضي الله عنه ذهب ضحية خدعة لم يحسن تدبرها . . أو ضحية أنصار لم يحسن تقدير إخلاصهم وثباتهم . . !

كلا، إن «الحسين» إنما ذهب شهيد إيمان قرر مختاراً ومشتاقًا أن يكون شهيده وقربانه . . ! !

يروى ابن الجوزى[1]:

لما مات معاوية، كان ابنه يزيد غائبًا، فلما سمع بموته قدم وقد دفن فبويع له، فأقر عبيد الله بن زياد على البصرة والنعمان بن بشير على الكوفة، وكان أمير مكة عمرو بن سعيد بن العاص وأمير المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان، ولم يكن ليزيد همّ حين ولى إلا بيعة النفر الذين أبوا على أبيه الإجابة إلى بيعة يزيد، فكتب إلى الوليد بن عتبة: أما بعد فخذ حسينًا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذًا شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا، والسلام .

(١) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم .

فبعث الوليد إلى مروان فاستشاره وقال: كيف ترى أن أصنع؟ قال: إنى أرى أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة، فإن فعلوا قبلت وإن أبوا ضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فإنهم إن علموا بموته وثب كل واحد منهم فى جانب فأظهر الخلاف والمنابذة، إلا أن ابن عمر لا أراه يرى القتال ولا يحب الولاية إلا أن تدفع إليه عفواً. وأرسل عبد الله بن عمرو بن عثمان وهو غلام حدث إلى الحسين وابن الزبير يدعوهما فوجدهما فى المجلس جالسين فقال: أجيبا الأمير.

فقالا له: انصرف فالآن نأتيه. ثم أقبل ابن الزبير على الحسين فقال له: ما تظن فيما بعث إلينا؟ فقال الحسين: أظن طاغيتهم قد هلك، وقد بعث هذا إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو الخبر. قال: وأنا ما أظن غيره، فما تريد أن تصنع؟ قال: أجمع فتيانى الساعة ثم أسير إليه فإذا بلغت الباب احتبستهم.

فجمع الحسين عليه السلام مواليه وأهل بيته، ثم مشى حتى انتهى إلى باب الوليد، وقال لأصحابه: إنى داخل فإن دعوتكم أو سمعتم صوتى قد علا، فاقتحموا علىَّ بأجمعكم وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج.

فدخل وعنده مروان فسلم عليه بالإمرة وجلس، فأقرأه الوليد الكتاب ونعى إليه معاوية ودعاه إلى البيعة. قال الحسين «إنا لله وإنا إليه راجعون» رحم الله معاوية وعظم لك الأجر، أما ما سألتنى من البيعة فإن مثلى لا يعطى بيعته سرّا، فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمرًا واحدًا. فقال له الوليد وكان يحب العافية: فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس.

فقال له مروان بن الحكم والله إن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبدًا حتى تكثر القتلى بينك وبينه! احبس الرجل ولا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه. فوثب الحسين عند ذلك فقال: يا بن الزرقاء، أنت تقتلنى أو هو؟ كذبت والله وأثمت، ثم خرج. فقال مروان: والله لا يمكنك من مثلها من نفسه. فقال الوليد والله ما أحب أن لى ما طلعت عليه الشمس وغربت وإنى قتلت حسينًا.

إذًا فقد رفض الحسين بن على عليه السلام وهو إمام الأمة وقدوتها البيعة ليزيد لأسباب كثيرة، أقلها شهادة الإمام أحمد بن حنبل التى نقلها عنه ابن الجوزى حيث قال (وقد أسند يزيد بن معاوية الحديث فروى عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإسنادنا إليه متصل غير أن الإمام أحمد سئل: أيروى عن يزيد الحديث؟ فقال: لا ولا كرامة. فلذلك امتنعنا أن نسند عنه!!).

الذى رفض العلماء أن يرووا عنه حديث رسول الله، كيف يكون إمامًا للمسلمين؟!

كما أن هذه الرواية تكشف عن الطريقة التى اعتمدها بنو أمية كوسيلة ومنهج فى التسلط على رقاب المسلمين، وهى تخيير الناس بين الدخول فى طاعتهم أو القتل!!.

روى الطبرى[1] أن يزيد استقبل وفدًا من أهل المدينة فيهم عبد الله بن حنظلة الغسيل وعبد الله بن أبى عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومى والمنذر بن الزبير فقدموا عليه فأكرمهم وأحسن وفادتهم وأعظم جوائزهم، فلما قدموا على المدينة، قاموا فأظهروا شتم يزيد وقالوا إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير ويضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسامر الخراب والفتيان، وإنا نشهدكم أنا خلعناه فتابعهم الناس.

القول بأن الإمام الحسين بن على عليه السلام كان مخيرًا بين البقاء فى المدينة مؤثرًا للسلامة محافظًا على دينه ودين الأمة أو الخروج على ولى النعم الأموى مما سيضطر طاغية بنى أمية لاتخاذ إجراء لم يكن يرغب فى اتخاذه(؟!) هو كلام لا يصمد أمام أى تمحيص، فلم يكن أمام الإمام سوى القتل أو البيعة لهذا الفاسق، وإذا لم يكن من الموت بد فمن العيب أن تعيش جبانًا!!.

يرضى القتيل وليس يرضى القاتل!!.

لا شك أن تفريط المسلمين فى واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كان سببًا رئيسًا فى وصولهم إلى حالهم المزرى الذى هم عليه الآن.

ولا شك أن انتقال النظام السياسى من الشورى إلى أبشع أنواع التسلط والاستبداد لم يكن قدرًا إلهيًا لا مرد له، بل كان اختيارًا إنسانيًا رضى به البعض حرصًا على دنيا

(١) تاريخ الرسل والملوك «تاريخ الطبرى» جـ ٥ ص ٤٨٠.

يصيبونها ونعيم زائل يناله البعض، وبينما يحرم منه جمهور المسلمين، الذين عانوا من يومها كل أنواع الظلم والأثرة والحرمان.

وإذا كان البعض ما زال يطرح السؤال نفسه عن سبب خروج الحسين بدلاً من بقائه نائمًا على فراشه، فنحن نطرح سؤالاً مقابلاً عن الدافع الأخلاقى الذى ساق البعض للسير فى ركاب السلطة الأموية الغاشمة، متجاهلين أبسط قواعد الدين والأخلاق القاضية بنصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم؟؟!!.

أيضًا فإن موقف الرفض الحسينى لم ينشأ فجأة عشية موت طاغية بنى أمية معاوية بن أبى سفيان، فقد كان للإمام الحسين مواقف كثيرة من تجاوزات هذا الطاغية. والخطبة التى بين أيدينا واحدة من تلك الكلمات التنويرية التى حاول من خلالها وضع الأمور فى نصابها؛ حيث يقول سلام الله عليه:

﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾**﴾ [المائدة: ٧٨ـ٧٩]. وإنما عاب الله ذلك عليهم لأنهم كانوا يرون من الظلمة الذين بين أظهرهم المنكر والفساد فلا ينهونهم عن ذلك، رغبة فيما كانوا ينالون منهم ورهبة مما يحذرون، والله يقول: ﴿**فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا**﴾ [المائدة: ٤٤]. وقال: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ [التوبة: ٧١]. فبدأ الله بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة منه لعلمه بأنها إذا أديت وأقيمت استقامت الفرائض كلها هينها وصعبها، وذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دعاء إلى الإسلام مع رد المظالم ومخالفة الظالم وقسمة الفيء والغنائم وأخذ الصدقات من مواضعها ووضعها فى حقها.

ثم أنتم، أيها العصابة، بالعلم مشهورة وبالخير مذكورة وبالنصيحة معروفة وبالله فى أنفس الناس مهابة، يهابكم الشريف ويكرمكم الضعيف ويؤثركم من لا فضل لكم عليه ولا يد لكم عنده، تشفعون فى الحوائج إذا امتنعت من طلابها، وتمشون فى الطريق بهيئة الملوك وكرامة الأكابر أليس كل ذلك إنما

نلتموه بما يرجى عندكم من القيام بحق الله؟ وإن كنتم عن أكثر حقه تقصرون فاستخففتم بحق الأئمة، فأما حق الضعفاء فضيعتم وأما حقكم بزعمكم طلبتم فلا مالاً بذلتموه ولانفسًا خاطرتم بها للذى خلقها ولا عشيرة عاديتموها فى ذات الله، أنتم تتمنون على الله جنته ومجاورة رسله وأمانًا من عذابه، لقد خشيت عليكم أيها المتمنون على الله أن تحل بكم نقمة من نقماته لأنكم بلغتم من كرامة الله منزلة فضلتم بها، ومن يعرف بالله لا تكرهون، وأنتم فى عباده تكرمون، وقد ترون عهود الله منقوضة فلا تفزعون وأنتم لبعض ذم آبائكم تفزعون وذمة رسول الله محقورة والعمى والبكم والزمن فى المداين مهملة لا ترحمون، ولا فى منزلتكم تعملون ولا من عمل فيها تعتبون وبالإدهان والمصانعة عند الظلمة تأمنون. كل ذلك مما أمركم الله به من النهى والتناهى أنتم عنه غافلون، وأنتم أعظم الناس مصيبة لما غلبتم عليه من منازل العلماء لو كنتم تسعون، ذلك بأن مجارى الأمور والأحكام على أيدى العلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه، فأنتم المسلوبون تلك المنزلة، وما سلبتم ذلك إلا لتفرقكم عن الحق واختلافكم فى السنة بعد البينة الواضحة، ولو صبرتم على الأذى وتحملتم المؤونة فى ذات الله كانت أمور عليكم ترد وعنكم تصدر وإليكم ترجع، ولكنكم مكنتم الظلمة من منزلتكم وأسلمتم أمور الله فى أيديهم، يعملون بالشبهات ويسيرون فى الشهوات، سلطهم على ذلك فراركم من الموت، وإعجابكم بالحياة التى هى مفارقتكم، فأسلمتم الضعفاء فى أيديهم، فما بين مستعبد مقهور وبين مستضعف على معيشته مغلوب، يتقلبون فى الملك بآرائهم ويستشعرون الخزى باقتدائهم اقتداء بالأشرار وجرأة على الجبار، فى كل بلد منهم على منبرة خطيب يصقع فالأرض لهم شاغرة وأيديهم فيها مبسوطة، والناس لهم خول لا يدفعون يد لامس، فمن بين جبار عنيد وذى سطوة على الضعيف شديد مطاع لا يعرف المبدئ المعيد، فيا عجبًا وما لى لا أعجب والأرض من غاش غشوم ومتصدق ظلوم وعامل على المؤمنين غير رحيم، فالله الحاكم فيما فيه تنازعنا والقاضى بحكمه فيما شجر بيننا.

اللهّم إنك تعلم أنه لم يكن ما كان منا تنافسًا فى سلطان ولا التماسًا من فضول الحطام ولكن لنرى المعالم من دينك ونظهر الإصلاح فى بلادك ويأمن

المظلوم من عبادك ويعمل بفرائضك وسنتك فى بلادك، فإنكم إن لم تنصرونا وتنصفونا، قوى الظلمة عليكم وعملوا فى إطفاء نور نبيكم، وحسبنا الله وعليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير).

(ألست قاتل حجروأصحابه العابدين المخبتين الذين كانوا يستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فقتلتهم ظلمًا وعدوانًا من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة والعهود المؤكدة، جرأة على الله واستخفافًا بعهده، أو لست بقاتل عمرو بن الحمق؟ الذى أخلقت وأبلت وجهه العبادة فنحلت جسمه وصفرت لونه بعد ما أمنته وأعطيته من عهود الله ومواثيقه فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود ما لو أعطيته طائرًا لنزل إليك من رأس الجبال ثم قتلته جرأة على الله واستخفافًا بذلك العهد!! أو لست المدعى زيادًا فى الإسلام، فزعمت أنه ابن أبى سفيان، وقد قضى رسول الله ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، ثم سلطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم فى جذوع النخل. سبحان الله! يا معاوية، لكأنك لست من هذه الأمة، وليسوا منك؟ أو لست قاتل الحضرمى؟ الذى كتب إليك فيه زياد أنه على دين علىّ صلوات الله عليه فكتبت إليه أن اقتل كل من كان على دين علىّ ودين علىّ هو دين ابن عمه ﷺ الذى أجلسك مجلسك الذى أنت فيه ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، فوضعها الله عنكم بنا منة عليكم).

يروى المؤرخون العديد من مواقف أبى عبد الله الحسين الرافضة لانتزاع هذه البيعة المغشوشة لهذا الفاسق صاحب السيرة غير العطرة التى لم تكن خافية على أحد من المسلمين آنئذ، ولكن من كان يجرؤ على الرفض وإعلان كلمة الحق غير أبى الأحرار الإمام الحسين؟

لذا يمكننا القول أن الإمام الحسين كان قد أعد العدة لاتخاذ مثل هذا الموقف والتصدى الحازم لبيعة الضلالة التى فرضت على المسلمين فرضًا، فكان ذلك التحرك

من المدينة أولاً إلى مكة للعمرة والحج، ثم إلى الكوفة لإعلان الموقف الصحيح فى المكان الملائم وفى الوقت الملائم، وليس بعد فوات الأوان.

خروج الحسين

يروى أبو مخنف[1]:

أن عبد الله بن الزبير قال له وهما فى مكة: إلىّ يا بن فاطمة، فأصغى إليه فساره. قال ثم التفت إلينا الحسين فقال: أتدرون ما يقول ابن الزبير؟ فقلنا: لا ندرى جعلنا الله فداك. فقال: قال أقم فى هذا المسجد أجمع لك الناس، ثم قال الحسين: والله لأن أقتل خارجًا منها بشبر أحب إلىّ من أن أقتل داخلاً منها بشبر، وايم الله لو كنت فى جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجونى حتى يقضوا فىّ حاجتهم، ووالله ليعتدن علىّ كما اعتدت اليهود فى السبت.

دعك إذا من ذلك السؤال المريب (لماذا خرج الحسين؟) واقرأ معى ما فعله بنو أمية فى ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسيد شباب أهل الجنة:

كربلاء

خرج الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة، وقد سبقه إلى هناك رسله بقيادة مسلم بن عقيل بن أبى طالب، فتلقفتهم سيوف القوم وقتلوهم، ولكن الإمام الحسين كان عازمًا على مواصلة المسير لإعلاء كلمة الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبدأ الأمويون فى إرسال جيوشهم لمحاصرة الحسين أولاً فى منطقة بعيدة عن العمران والماء ثم قتله هو وأهل بيته.

عندما وصل الحسين عليه السلام إلى ذى حسم، قام فيمن معه خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

إنه قد نزل من الأمر ما ترون، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها، واستمرت جدّا فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش

(١) مقتل الحسين.

كالمرعى الوبيل، ألا ترون وأن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن فى لقاء الله محقّا فإنى لا أرى الموت إلا شهادة، ولا الحياة مع الظالمين إلا برمًا.

ثم أرسل عبيد الله بن زياد ـ ولى زياد من أيام معاوية على الكوفة ـ كتابًا إلى قائد جيشه عمر بن سعد بن أبى وقاص يأمره بالحيلولة بين الحسين وأصحابه وبين الماء ولا يذوقوا منه قطرة.

فبعث عمر بن سعد خمسمائة فارس فنزلوا على الشريعة [الماء]، وحالوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء أن يسقوا منه قطرة، وذلك قبل قتل الحسين بثلاثة أيام، ثم جاء أحد جلاوزة بنى أمية فقال: يا حسين ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء؟ والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشا.

فلما اشتد على الحسين وأصحابه العطش، دعا أخاه العباس بن على بن أبى طالب، فبعثه فى ثلاثين فارسًا وعشرين راجلاً وبعث معهم بعشرين قربة، فجاءوا حتى دنوا من الماء ليلاً، يتقدمهم نافع بن هلال الجملى، فقال له عمرو بن الحجاج الزبيدى: من الرجل وما جاء بك؟ قال: جئنا نشرب من هذا الماء الذى خالأتمونا عنه [منعتمونا عنه]، قال: فاشرب هنيئًا. قال: لا، والله لا أشرب منه قطرة وحسين عطشان ومن ترى من أصحابه، فقال لا سبيل إلى سقى هؤلاء، إنما وضعنا بهذا المكان لنمنعهم الماء.

ثم إن عبيد الله بن زياد دعا شمر بن ذى الجوشن فقال له:

اخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد، فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمى، فإن فعلوا فليبعث بهم إلىّ سلمًا، وإن هم أبوا فليقاتلهم، فإن فعل فاسمع له وأطع، وإن هو أبى فقاتلهم، فأنت أمير الناس، واضرب عنقه وابعث إلىّ برأسه. ثم كتب ابن زياد إلى عمر بن سعد: أما بعد فإنى لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ولا لتطاوله ولا لتمنيه السلامة والبقاء، ولا لتقعد له عندى شافعًا، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا، فابعث بهم إلىّ سلمًا، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم، فإنهم لذلك مستحقون، فإن قتل حسين فأوطأ الخيل

صدره وظهره، فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم، إن أنت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا، وخل بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر، فإنا قد أمرناه بأمرنا، والسلام.

فأقبل شمر بن ذى الجوشن بكتاب عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد، فلما قدم به عليه فقرأه، قال له عمر أفسدت علينا أمرًا كنا رجونا أن يصلح! لا يستسلم والله حسين، إن نفسًا أبية لبين جنبيه، فقال له شمر: أتمضى لأمر أميرك وتقتل عدوه؟ وإلا فخل بينى وبين الجند والعسكر، قال: لا ولا كرامة لك وأنا أتولى ذلك. فنهض عمر بن سعد إليه عشية الخميس لتسع مضين من المحرم.

ثم إن عمر بن سعد نادى يا خيل الله اركبى وأبشرى! فركب فى الناس ثم زحف نحوهم بعد صلاة العصر، وحسين جالس أمام بيته محتبيًا بسيفه، إذ خفق برأسه على ركبتيه، وسمعت أخته زينب الصيحة فدنت من أخيها فقالت: يا أخى أما تسمع الأصوات قد اقتربت؟ فرفع الحسين رأسه فقال: إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله فى المنام فقال لى: إنك تروح إلينا، فلطمت أخته وجهها وقالت: يا ويلتى! فقال ليس لك الويل يا أخية، اسكتى رحمك الرحمان، وقال العباس بن على: يا أخى أتاك القوم، قال: فنهض ثم قال: يا عباس اركب حتى تلقاهم فتقول لهم: ما لكم وما بدا لكم؟ وتسألهم عما جاء بهم؟. فأتاهم العباس فاستقبلهم فى نحو من عشرين فارسًا، فيهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر، فقال لهم العباس: ما بدا لكم وما تريدون؟ قالوا: جاء أمر الأمير بأن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو ننازلكم، قال: فلا تعجلون حتى أرجع إلى أبى عبد الله فأعرض عليه ما ذكرتم، فوقفوا ثم قالوا: القه فأعلمه ذلك ثم القنا بما يقول، فانصرف العباس راجعًا يركض إلى الحسين يخبره بالخبر ووقف أصحابه يخاطبون القوم ، فقال حبيب بن مظاهر لزهير بن القين: كلم القوم إن شئت وإن شئت كلمتهم، فقال له زهير أنت بدأت بهذا فكن أنت تكلمهم، فقال لهم حبيب بن مظاهر: أما والله لبئس القوم عند الله غدًا قوم يقدمون عليه

قتلوا ذرية نبيه وعترته وأهل بيته صلى الله عليه وآله، وعباد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسحار والذاكرين الله كثيراً .

وأقبل العباس بن على يركض حتى انتهى إليهم فقال: يا هؤلاء إن أبا عبد الله يسألكم أن تنصرفوا هذه العشية حتى ينظر فى هذا الأمر، فإن هذا أمر لم يجر بينكم وبينه فيه منطق، فإذا أصبحنا التقينا إن شاء الله، فإما رضيناه فأتينا بالأمر الذى تسألونه وتسومونه، أو كرهنا فرددناه. وإنما أراد [الحسين] بذلك أن يردهم عنه تلك العشية حتى يأمر بأمره ويوصى أهله.

قال على بن الحسين: فجمع الحسين أصحابه قرب المساء، فدنوت منه وأنا مريض فسمعت أبى وهو يقول لأصحابه:

أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء، اللهم إنى أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن وفقهتنا فى الدين وجعلت لنا أسماعًا وأبصارًا وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين.

أما بعد، فإنى لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابى ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتى، فجزاكم الله عنى جميعًا خيرًا، ألا وإنى أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وإنى قد رأيت لكم فانطلقوا جميعًا فى حل ليس عليكم منى ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً ثم تفرقوا فى سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله، فإن القوم إنما يطلبونى ولو قد أصابونى لهواً عن طلب غيرى.

فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه وابنا عبد الله بن جعفر: لم نفعل؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً.

فقال الحسين: يا بنى عقيل حسبكم من القتل بمسلم، اذهبوا قد أذنت لكم.

قالوا لا والله لا نفعل ولكن نفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك.

وقال على بن الحسين: إنى جالس فى تلك العشية التى قتل أبى صبيحتها، وعمتى زينب عندى تمرضنى، إذ اعتزل أبى بأصحابه فى خباء له وهو يقول:

يا دهر أف لك من خليـــــل كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيـــل والدهر لا يقنع بالبديـــل
وإنما الأمر إلى الجليـــــل و كل حى ســالك السبيل

فأعادها مرتين أو ثلاثًا، فعرفت ما أراد فخنقتنى عبرتى فرددت دمعى ولزمت السكون، فعلمت أن البلاء قد نزل، أما عمتى زينب فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها وإنها لحاسرة حتى انتهت إليه فقالت: واثكلاه ليت الموت أعدمنى الحياة . . اليوم ماتت فاطمة أمى وعلى أبى وحسن أخى، يا خليفة الماضين وثمال الباقين.

فقال لها الحسين: يا أخية لا يذهبن حلمك الشيطان، يا أخية اتقى الله وتعزى بعزاء الله، واعلمى أن أهل الأرض يموتون وأن أهل السماء لا يبقون، وأن كل شىء هالك إلا وجه الله الذى خلق الأرض بقدرته ويبعث الخلق فيعودون وهو فرد وحده، أبى خير منى، وأمى خير منى وأخى خير منى، ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة. قال فعزاها بهذا ونحوه، وقال لها: يا أخية إنى أقسم عليك فأبرى قسمى ولا تشقى علىّ جيبًا ولا تخمشى علىّ وجهًا إذا أنا هلكت. قال: ثم جاء بها حتى أجلسها عندى وخرج إلى أصحابه.

فلما أمسى حسين وأصحابه، قاموا الليل كله يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون.

وفى اليوم التالى، وكان ذلك يوم عاشوراء، صلى عمر بن سعد الغداة، ثم خرج فيمن معه من الناس، بينما عبأ الحسين أصحابه وصلى بهم صلاة الغداة، وكان معه اثنان وثلاثون فارسًا وأربعون راجلاً، فجعل زهير بن القين فى ميمنة أصحابه وحبيب بن مظاهر فى ميسرة أصحابه، وأعطى رايته العباس بن على أخاه، وجعلوا البيوت فى ظهورهم.

فلما صبحت الخيل الحسين رفع يديه فقال:

اللهم أنت ثقتى فى كل كرب ورجائى فى كل شدة، وأنت لى فى كل أمر

نزل بى ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو، أنزلته بك وشكوته إليك رغبة منى إليك عمن سواك، ففرجته وكشفته، فأنت ولى كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبة.

فلما دنا القوم من الحسين، عاد فركب فرسه ثم نادى بأعلى صوته يسمع جل الناس:

أيها الناس اسمعوا قولى ولا تعجلونى حتى أعظكم وحتى أعتذر إليكم من مقدمى عليكم، فإن قبلتم عذرى وصدقتم قولى أعطيتمونى النصف، كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم علىّ سبيل، وإن لم تقبلوا منى العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم، ﴿**فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ**﴾ [يونس: ٧١]، ﴿**إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦)**﴾ [الأعراف: ١٩٦]. ثم حمد الله وأثنى عليه وذكر الله بما هو أهله وصلى على محمد صلى الله عليه وآله وعلى أنبيائه.

ثم قال: أما بعد، فانسبونى فانظروا من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها فانظروا، هل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى؟ ألست ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وآله، وابن وصيه وابن عمه وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه؟ أوَليس حمزة سيد الشهداء عم أبى؟ أوَليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمى؟ أوَلم يبلغكم قول مستفيض فيكم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال لى ولأخى «**هذان سيدا شباب أهل الجنة**»؟ فإن صدقتمونى بما أقول وهو الحق، والله ما تعمدت كذبًا مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله ويضر به من اختلقه، وإن كذبتمونى فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم. سلوا جابر بن عبد الله الأنصارى وأبا سعيد الخدرى أو سهل بن سعد الساعدى أو زيد بن أرقم أو أنس بن مالك يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وآله لى ولأخى، أما فى هذا حاجز لكم عن سفك دمى؟.

ثم قال لهم الحسين:

فإن كنتم فى شك من هذا القول، أفتشكون أنى ابن بنت نبيكم؟ فو الله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبى غيرى منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيكم خاصة. أخبرونى أتطلبونى بقتيل منكم قتلته؟ أو مال لكم استهلكته؟ أو بقصاص من جراحة؟

فأخذوا لا يكلمونه.

فنادى يا شيث بن ربعى ويا حجار بن أبجر ويا قيس بن الأشعث ويا يزيد ابن الحارث، ألم تكتبوا إلىّ أن قد أينعت الثمار واخضر الجناب وطمت الجمام، وإنما تقدم على جند لك مجند فأقبل؟

قالوا له: لم نفعل. فقال: سبحان الله بلى والله لقد فعلتم، ثم قال: أيها الناس إذا كرهتمونى فدعونى أنصرف عنكم إلى مأمنى من الأرض.

فقال له قيس بن الأشعث: أو لا تنزل على حكم بنى عمك؟ فإنهم لن يروك إلا ما تحب ولن يصل إليك منهم مكروه..

فقال له الحسين: أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله لا أعطيهم بيدى إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد. عباد الله إنى عذت بربى وربكم أن ترجمون، أعوذ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

الحر بن يزيد الرياحى

ثم إن الحر بن يزيد لما زحف عمر بن سعد قال له: أصلحك الله، أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال إى والله قتالاً أيسره أن تسقط الرءوس وتطيح الأيدى، قال أفما لكم فى واحدة من الخصال التى عرض عليكم رضى؟ قال عمر بن سعد: أما والله لو كان الأمر إلىّ لفعلت، ولكن أميرك قد أبى ذلك. قال فأقبل الحر حتى وقف من الناس موقفًا ومعه رجل من قومه يقال له قرة بن قيس، فقال: يا قرة هل سقيت فرسك اليوم؟ قال لا قال: أما تريد أن

تسقيه؟ قال قرة: فظننت والله أنه يريد أن يتنحى فلا يشهد القتال، وكره أن أراه حين يصنع ذلك فيخاف أن أرفعه عليه، فقلت له: لم أسقه وأنا منطلق فساقيه، قال: فاعتزلت ذلك المكان الذى كان فيه، قال: فوالله لو أنه أطلعنى على الذى يريد لخرجت معه إلى الحسين، فأخذ يدنو من حسين قليلاً قليلاً، فقال له رجل من قومه: ما تريد يا بن يزيد؟ أتريد أن تحمل؟ فسكت وأخذته رعدة، ثم قال إنى والله أخير نفسى بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة شيئًا ولو قطعت وحرقت، ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين، فقال له: جعلنى الله فداك يا بن رسول الله أنا صاحبك الذى حبستك عن الرجوع وسايرتك فى الطريق وجعجعت بك فى هذا المكان، والله الذى لا إله إلا هو ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبدًا، ولا يبلغون منك هذه المنزلة، وإنى قد جئتك تائبًا مما كان منى إلى ربى ومواسيًا لك بنفسى، حتى أموت بين يديك، أفترى ذلك لى توبة؟ قال نعم يتوب الله عليك ويغفر لك، ما اسمك؟ قال أنا الحر بن يزيد، قال: أنت الحر كما سمتك أمك، أنت الحر إن شاء الله فى الدنيا والآخرة، انزل. قال أنا لك فارسًا خير منى راجلاً، أقاتلهم على فرسى ساعة وإلى النزول يصير آخر أمرى، قال الحسين فاصنع يرحمك الله ما بدا لك.

فتقدم الحر أمام أصحابه، ثم قال لعمر بن سعد: ألا تقبلون من حسين خصلة من هذه الخصال التى عرض عليكم فيعافيكم الله من حربه وقتاله؟ قال عمر: لو وجدت إلى ذلك سبيلاً فعلت. فقال:

يا أهل الكوفة لأمكم الهبل والعبر، إذ دعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه بعد أن زعمتم أنكم قاتلوا أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه! أمسكتم بنفسه وأخذتم بكظمه وأحطتم به من كل جانب، فمنعتموه التوجه فى بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته، وأصبح فى أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعًا ولا يدفع ضرًا، ومنعتموه ونساءه وأهل بيته وأصحابه عن ماء الفرات الجارى الذى يشربه اليهودى والمجوسى والنصرانى، وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، وهاهم قد صرعهم العطش! بئسما خلفتم محمدًا

فى ذريته، لا سقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا فى ساعتكم هذه.

فحملت عليه رجالة لهم ترميه بالنبل، فأقبل حتى وقف أمام الحسين.

وزحف عمر بن سعد نحوهم، ثم وضع سهمه فى كبد قوسه ثم رمى فقال: اشهدوا أنى أول من رمى.

وحمل شمر بن ذى الجوشن حتى طعن فسطاط الحسين برمحه، ونادى علىّ بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله، قال فصاح النساء وخرجن من الفسطاط. قال وصاح به الحسين يا بن ذى الجوشن أنت تدعو بالنار لتحرق بيتى على أهلى حرقك الله بالنار، فقال له رجل سبحان الله إن هذا لا يصلح لك، أتريد أن تعذب بعذاب الله وتقتل الولدان والنساء؟ والله إن فى قتلك الرجال لما ترضى به أميرك، فجاءه شيث بن ربعى فقال: ما رأيت مقالاً أسوأ من قولك ولا موقفًا أقبح من موقفك، أمرعبًا للنساء صرت؟ فاستحيا وانصرف.

وكان أول من قتل بالطف [اسم مكان المعركة] من بنى هاشم على بن الحسين.

فشد الحسين عليه السلام حتى وقف عليه وهو مقطع، فقال قتل الله قومًا قتلوك، يا بنى ما أجرأهم على الرحمان وعلى انتهاك حرمة الرسول، على الدنيا بعدك العفا، ثم خرجت امرأة مسرعة كأنها الشمس الطالعة تنادى: يا أخياه ويا بن أخاه، فقيل هذه زينب ابنة فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءت حتى أكبت عليه، فجاءها الحسين فأخذ بيدها فردها إلى الفسطاط، وأقبل الحسين إلى ابنه وأقبل فتيانه إليه فقال: احملوا أخاكم. فحملوه من مصرعه حتى وضعوه بين يدى الفسطاط الذى كانوا يقاتلون أمامه.

ولما يئس الحسين من نفسه، ذهب إلى فسطاطه فطلب طفلاً له ليودعه، فجاءته به أخته زينب فتناوله من يدها ووضعه فى حجره، فبينا هو ينظر إليه

إذ أتاه سهم فوقع فى نحره فذبحه، فأخذ الحسين عليه السلام دمه بكفه ورمى به إلى السماء وقال:

اللهَّم لا يكن أهون عليك من دم فصيل ناقة صالح، اللهم إن حبست عنا النصر من السماء، فاجعل ذلك لما هو خير لنا، وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين فلقد هون ما بى أنه بعينك يا أرحم الراحمين.

استشهاد الحسين

ثم قال الحسين:

اللهم إنى أشكو إليك ما يفعل بابن بنت نبيك.

ثم إن شمر بن ذى الجوشن أقبل فى نفر من الرجالة قبل منزل الحسين الذى فيه ثقله وعياله، فمشى نحوه فحالوا بينه وبين رحله.

فقال الحسين:

ويلكم إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون يوم المعاد، فكونوا فى أمر دنياكم أحراراً ذوى أحساب، امنعوا رحلى وأهلى من طغامكم وجهالكم، فقال ابن ذى الجوشن: ذلك لك يا بن فاطمة. وأقدم عليه بالرجالة منهم: عبد الرحمن الجعفى والقشعم بن عمرو بن يزيد الجعفى وصالح بن وهب اليزنى وسنان بن أنس النخعى وخولى بن يزيد الأصبحى، فجعل شمر بن ذى الجوشن يحرضهم، فمر بأبى الجنوب وهو شاك فى السلاح فقال له: أقدم عليه، قال: وما يمنعك أن تقدم عليه أنت؟ فقال له شمر ألى تقول ذا؟ قال وأنت لى تقول ذا؟ فاستبا فقال له أبو الجنوب والله لهممت أن أخضخض السنان فى عينك، فانصرف عنه شمر وقال والله لئن قدرت على أن أضرك لأضرنك.

ثم إن شمراً أقبل فى الرجالة نحو الحسين، فأخذ الحسين يشد عليهم فينكشفون عنه، ثم إنهم أحاطوا به، فضربه مالك بن النسر الكندى بسيفه على رأسه بعد أن شتمه، ثم ألقى الحسين عليه السلام قلنسوته ودعا بخرقة

وقلنسوة، فشد رأسه بالخرقة ولبس القلنسوة واعتم عليها، فرجع عنه شمر ومن معه إلى مواضعهم، فمكث هنيهة ثم عاد وعادوا إليه وأحاطوا به، فخرج عبد الله بن الحسن، من عند النساء وهو غلام لم يراهق، فشد حتى وقف إلى جنب عمه الحسين عليه السلام، فلحقته زينب لتحبسه فأبى، فقال لها الحسين: احبسيه يا أخية، فامتنع امتناعًا شديدًا وقال: والله لا أفارق عمى، وأهوى بحر بن كعب إلى الحسين بالسيف، فقال له الغلام: ويلك يا بن الخبيثة أتقتل عمى؟ فضربه بحر بالسيف، فاتقاه الغلام بيده فأطنها إلى الجلد، فإذا هى معلقة، فأخذه الحسين عليه السلام وضمه إليه وقال يا بن أخى اصبر على ما نزل بك واحتسب فى ذلك الخير، فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين.

وأصابت الرماح ضلوع ابن النبى وأثخن بالجراح، فقال شمر ما وقوفكم وما تنتظرون بالرجل وقد أثخنته السهام؟ احملوا عليه ثكلتكم أمهاتكم، فحملوا عليه من كل جانب، فرماه أبو الجنوب الجعفى فى جبينه، والحصين ابن نمير فى فيه، وأبو أيوب الغنوى بسهم مسموم فى حلقه، فقال عليه السلام: بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وهذا قتيل فى رضى الله.

وكانت ضربة زرعة بن شريك التميمى على كتفه الأيسر، وضربة عمر بن الخليفة الجعفى على حبل عاتقه، وطعنه صالح بن وهب المزجى على جنبيه، ورماه سنان بن أنس النخعى فى صدره، فوقع على الأرض، فدنا منه عمر ابن سعد وقال: جزوا رأسه.

وعن جعفر بن محمد بن على قال: وجد بالحسين عليه السلام حين قتل ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة، وجعل سنان بن أنس لا يدنو أحد من الحسين إلا شد عليه مخافة أن يغلب على رأسه، حتى أخذ رأس الحسين ومال الناس على الورس والحلل والإبل فنهبوها، قال ومال الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه، فإن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها[1].

***

انتهى ذلك النقل لفاجعة مقتل الحسين بن على عليهما السلام من كتاب (*مقتل الحسين*) لأبى مخنف، وما ورد فيه لا يختلف فى شىء عما ورد فى بقية كتب التاريخ

(١) أبو مخنف مقتل الحسين.

مثل تاريخ الطبرى والإمامة والسياسة لابن قتيبة والبداية والنهاية لابن كثير ومن أراد المزيد فليرجع لكتب التاريخ.

هذه هى القصة الحقيقية لمقتل أبى الأحرار، أبى عبد الله الحسين ابن فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، وأهله أهل الورع والتقوى، بيت النبى الأمين، الذين اعتورتهم سيوف بنى أمية يوم عاشوراء، ثم قامت خيولهم بوطأ أجسادهم وقامت جحافلهم بسلب نسائهم وجز رءوس الشهداء والاحتفال بانتصار جيش (أمير المؤمنين) يزيد بن معاوية على (الكذاب بن الكذاب الحسين بن على وشيعته)!!!.

ثم ها هو عمر بن سعد بن أبى وقاص يطلب من أصحابه أن يمثلوا بالجسد الطاهر لأبى عبد الله الحسين ريحانة رسول الله، وأن يوطأ بسنابك الخيل، فانتدب عشرة منهم للقيام بتلك (المهمة المقدسة) فأتوا فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضّوا ظهره وصدره.

ثم سيقت نساء بيت النبوة سبايا ليمروا على الجثث الطاهرة، وما إن مرت زينب عليها السلام بأخيها الحسين صريعًا حتى صرخت وقالت:

يا محمداه يا محمداه، صلى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعراء مرمل بالدماء مقطع الأعضاء، يا محمداه وبناتك سبايا وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبا.

ثم قطعت رءوس الباقين، اثنين وسبعين رأسًا حملها شمر بن ذى الجوشن وقيس ابن الأشعث وعمر بن الحجاج وعزرة بن قيس، فأقبلوا حتى قدموا بها على عبيد الله بن زياد، ودخل الناس، ثم نودى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فى المسجد فصعد المنبر فقال:

الحمد الله الذى أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذاب بن الكذاب الحسين بن على وشيعته.

فلم يفرغ ابن زياد من مقالته، حتى وثب إليه عبد الله بن عفيف الأزدى، وكان من شيعة على كرم الله وجهه، وكانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل مع على، فلما كان يوم صفين ضرب على رأسه ضربة وأخرى على حاجبه فذهبت عينه الأخرى، فكان لا يكاد يفارق المسجد الأعظم، يصلى فيه إلى الليل ثم ينصرف. فلما سمع مقالة ابن زياد قال: يا بن مرجانة، إن الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه. يا بن مرجانة أتقتلون أبناء النبيين وتتكلمون بكلام الصديقين؟. فقال ابن زياد: علىَّ به. قال: فوثبت عليه الجلاوزة فأخذوه فقتل وأمر بصلبه فى السبخة فصلب هنالك.

وينقل ابن كثير[1]:

وأرسل عمر بن سعد بحرمه وعياله إلى ابن زياد، ولم يكن بقى من آل الحسين إلا غلام (على بن الحسين) وكان مريضًا مع النساء، فأمر به ابن زياد ليقتل، فطرحت زينب نفسها عليه وقالت: والله لا يقتل حتى تقتلونى، فرق لها وكف عنه.

فأرسلهم إلى يزيد، فجمع يزيد من كان بحضرته من أهل الشام، ثم دخلوا عليه فهنؤوه بالفتح، فقام رجل منهم أحمر أزرق ـ ونظر إلى وصيفة من بناته ـ فقال: يا أمير المؤمنين، هب لى هذه. فقالت زينب: لا ولا كرامة لك ولا له، إلا أن تخرجا من دين الله. قال: فأعادها الأزرق، فقال له يزيد: كف عن هذا.

فلما رجع الحريم إلى المدينة، خرجت امرأة من بنى عبد المطلب ناشرة شعرها واضعة كمها على رأسها تتلقاهم وهى تبكى وتقول:

ماذا تقولون إن قال النبى لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم

بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى ... منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم

ما كان هذا جزائى إذ نصحت لكم ... أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحم

ولك أن تلاحظ أنه لم يجرؤ أحد من الشعراء على الجهر علنًا برثائه للإمام الحسين عليه السلام، حتى أن المؤرخين كانوا يلقون بمسئولية المراثى التى سمعوها على الجن، فيقولون سمعنا صائحًا أو سمعنا الجن يقول، ويا للعجب حيث يقول أبو الفرج: وقد رثى الحسين بن على ـ صلوات الله عليه ـ جماعة من متأخرى الشعراء استغنى عن ذكرهم فى هذا الموضع كراهية الإطالة، وأما من تقدم فما وقع إلينا شىء رثى به وكان الشعراء لا يقدمون على ذلك مخافة من بنى أمية وخشية منهم !!!.

ثم ذكر شاعرًا واحدًا قام برثائه من المتقدمين هو سليمان بن قتة حيث قال:

مررت على أبيات آل محمد ... فلم أرها أمثالها يوم حلت

ألم تر أن الشمس أضحت مريضة ... لفقد حسين والبلاد اقشعرت

وكانوا رجاء ثم صاروا رزية ... لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

(١) البداية والنهاية.

أتسألنا قيس فنعطى فقيرها وتقتلنا قيس إذا النعل زلت
وعند غنى قطرة من دمائنا سنطلبها يومًا بها حيث حلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها وإن أصبحت منهم برغمى تخلت
فإن قتيل الطف من آل هاشم أذل رقاب المسلمين فذلت

وقبل أن ننتقل إلى الإمام الرابع، على بن الحسين السجاد، زين العابدين، نقتبس من اليعقوبى[1] ما جاء تحت عنوان:

أيام معاوية بن يزيد بن معاوية

ثم ملك معاوية بن يزيد بن معاوية، وأمه أم هاشم بنت أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة، أربعين يومًا، وقيل: بل أربعة أشهر، وكان له مذهب جميل، فخطب الناس، فقال: أما بعد حمد الله والثناء عليه، أيها الناس فإنا بلينا بكم وبليتم بنا، فما نجهل كراهتكم لنا وطعنكم علينا، ألا وإن جدى معاوية بن أبى سفيان نازع الأمر من كان أولى به منه فى القرابة برسول الله، وأحق فى الإسلام، سابق المسلمين، وأول المؤمنين، وابن عم رسول رب العالمين، وأبا بقية خاتم المرسلين، فركب منكم ما تعلمون، وركبتم منه ما لا تنكرون، حتى أتته منيته وصار رهنًا بعمله، ثم قلد أبى وكان غير خليق للخير، فركب هواه، واستحسن خطأه، وعظم رجاؤه، فأخلفه الأمل، وقصر عنه الأجل، فقلّت منعته، وانقطعت مدته، وصار فى حفرته رهنًا بذنبه، وأسيرًا بجرمه، ثم بكى، وقال: إن أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وقبح منقلبه، وقد قتل عترة الرسول، وأباح الحرمة، وحرق الكعبة، وما أنا المتقلد أموركم، ولا المتحمل تبعاتكم، فشأنكم أمركم، فوالله لئن كانت الدنيا مغنمًا لقد نلنا منها حظًا، وإن تكن شرًا فحسب آل أبى سفيان ما أصابوا منها.

فقال له مروان بن الحكم: سنها فينا عمرية! قال: ما كنت أتقلدكم حيًا وميتًا، ومتى صار معاوية بن يزيد بن معاوية مثل عمر، ومن لى برجل مثل رجال عمر. وتوفى وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وصلى عليه خالد بن يزيد بن معاوية، وقيل بل عثمان بن محمد بن أبى سفيان، ودفن بدمشق، وكان بها ينزل.

(١) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٥٤.

٤ ـ على بن الحسين السجاد
(زين العابدين)
(٣٨ ـ ٩٥هـ)

وكان الإمام بعد الحسين بن علىٍّ ابنه أبو محمّد علىّ بن الحسين زين العابدين، وكان مولده بالمدينة سنة ثمان وثلاثين من الهجرة، أى أنه بقى مع جدّه أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام سنتين ومع عمّه الحسن عشر سنين ومع أبيه الحسين عليه السلام إحدى عشرة سنةً وكانت إمامته أربعًا وثلاثين سنةً، وتوفّى بالمدينة سنة خمس وتسعين للهجرة وله يومئذ سبعٌ وخمسون سنةً. ودفن بالبقيع مع عمّه الحسن بن على عليهما السّلام.

كان يكنى بأبى محمد، وسيد العابدين، وزين العابدين، والسجاد.

روى أبو القاسم الزمخشرى[١]:

أنه لما جىء إلى المدينة بسبى فارس فى خلافة عمر بن الخطاب (١٣ـ ٢٣هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م) كان فى هذا السبى ثلاث بنات ليزدجر، فأمر عمر ـ رضي الله عنه ـ ببيع البنات الثلاث، فقال الإمام على، كرم الله وجهه فى الجنة: إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من السوقة، فسأله أمير المؤمنين عمر: كيف الطريق إلى العمل معهن يا أبا الحسن؟ فقال، كرم الله وجهه: يقوّمن يا أمير المؤمنين، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن.

وقد أخذ عمر برأى الإمام، فأخذهن على، رضي الله عنه، ثم دفع بواحدة لعبد الله ابن عمر، ودفع بالثانية إلى محمد بن أبى بكر، ودفع بالثالثة إلى الحسين، على أن تكون البنات الثلاث زوجات لأكفائهن من العرب. وقد ولدت زوجة الحسين عليّا زين العابدين الذى ينتسب إليه كل شريف حسينى على وجه الأرض، فيكون له بذلك من العرب أشرف الأصلاب، إلى جانب أن له فى الفرس أكرم الأرحام[٢].

(١) ربيع الأبرار.

(٢) ابن كثير البداية والنهاية ٩/ ١١٦، ابن خلكان وفيات الأعيان ٣/ ٢٦٧ (بيروت ١٩٦٥م)، أحمد حسن الباقورى: على إمام الأئمة ـ القاهرة ١٩٨٥م ص ١٨٠، عبد الرازق الموسوى، المرجع السابق ص١٢، باقر القرشى المرجع السابق ص٢٢، الشبلنجى المرجع السابق ص١٣٩، الصدوق: عيون أخبار الرضا ص٢٧، البحار ١١/ ٤، العماد الحنبلى شذرات الذهب ١/ ١٠٤، نزهة المجالس ٢/ ١٩٢، زهرة المنقول ص٦.

وروى الصبان القصة على الوجه التالى :

جاء فى السيرة الحلبية ، لما جىء ببنات كسرى ، وكن ثلاثًا ، مع أمواله وذخائره إلى عمر ، وقفن بين يديه ، وأمر المنادى أن ينادى عليهن ، وأن يزيل نقابهن عن وجوههن ، فامتنعن عن كشف نقابهن ووكزن المنادى فى صدره ، فغضب عمر ، رضي الله عنه ، وأراد أن يعلوهن بالدرة ، وهن يبكين ، فقال له على ، كرم الله وجهه : مهلاً يا أمير المؤمنين ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ارحموا عزيز قوم ذل ، وغنى قوم افتقر» فسكن غضبه ، فقال له على : إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن ، فقال له عمر : كيف الطريق إلى العمل معهن؟ فقال : يقوّمن ، ومهما بلغ ثمنهن يقوم به من يختارهن ، فقوّمن وأخذهن على ، رضى الله تعالى عنه ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، فجاء منها بولده سالم ، وأخرى لمحمد بن أبى بكر ، فجاء منها بولده القاسم ، والثالثة لولده الحسين ، فجاء منها بولده على زين العابدين ، وهؤلاء الثلاثة فاقوا أهل المدينة علمًا[1] .

وقال الراغب الأصفهانى : إن أمير المؤمنين قال لولده الحسين : خذها فستلد لك سيدًا فى العرب ، سيدًا فى العجم ، سيدًا فى الدنيا والآخرة[2] .

* * *

على بن الحسين فى أسر يزيد

ذكرنا من قبل أن علىّ بن الحسين عليه السلام كان الوحيد الذى أفلت من الذبح يوم عاشوراء من رجالات أهل البيت ، وكان أن أسر وسيق إلى طغاة بنى أمية ؛ حيث يروى أبو مخنف[3] عن حميد بن مسلم قال :

إنى لقائم عند ابن زياد حين عرض عليه على بن الحسين ، فقال له ما اسمك؟ قال : أنا على بن الحسين ، قال أو لم يقتل الله على بن الحسين؟ فسكت . فقال له ابن زياد : مالك لا تتكلم؟ قال قد كان لى أخ يقال له أيضًا على فقتله الناس . قال إن الله قد قتله . قال : فسكت على ، فقال له مالك لا تتكلم؟

(١) محمد الصبان إسعاف الراغبين فى سيرة المصطفى وفضائل أهل بيته الطاهرين ص ٢١٧ .
(٢) الراغب الأصفهانى محاضرات الأدباء ١/ ٣٤٧ ، محمد جواد مغنية فضائل الإمام علىّ ص٢١٨ .
(٣) مقتل الحسين .

قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥]. فقال [زياد لحارسه] اقتله. فقال على بن الحسين من توكل بهؤلاء النسوة؟ وتعلقت به زينب عمته، فقالت يا ابن زياد حسبك منا، أما رويت من دمائنا؟ وهل أبقيت منا أحدا؟ قال فاعتنقته فقالت أسألك بالله إن كنت مؤمنًا إن قتلته لما قتلتنى معه. قال وناداه على فقال: يا بن زياد إن كانت بينك وبينهم قرابة فابعث معهن رجلاً تقيًا يصحبهن بصحبة الإسلام. قال: فنظر إليها ساعة ثم نظر إلى القوم فقال: عجبًا للرحم! والله إنى لأظنها ودت لو أنى قتلته أنى قتلتها معه. دعوا الغلام. . . . انطلق مع نسائك.

وفى تلك الفترة التى أمضاها على بن الحسين فى الأسر الأموى، خرج يومًا يمشى فى أسواق دمشق، فلقيه المنهال بن عمرو، فقال كيف أمسيت يا بن رسول الله؟ قال أمسينا كمثل بنى إسرائيل فى آل فرعون، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم. يا منهال أمست العرب تفتخر على العجم بأن محمدًا منها، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمدًا منها، وأمسينا معشر أهل بيته ونحن مقتولون مشردون، فإنا لله وإنا إليه راجعون مما أمسينا فيه يا منهال.

وروى ابن سعد فى طبقاته قريبًا من هذا.

أهل البيت

الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس

حدّثنى محمّد بن جعفر وغيره قالوا: وقف على علىّ بن الحسين عليهما السّلام رجلٌ فشتمه فلم يكلّمْه الإمام، فلمّا انصرف قال لجلسائه قد سمعتم ما قال هذا الرّجل وأنا أحب أن تأتوا معى إليه حتى تسمعوا ردّى عليه، قالوا له نفعل ولقد كنّا نحب أن تقول له ونقول، فأخذ نعليه ومشى وهو يقول ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. فعلمْنا أنّه لا يقول له شيئًا، فخرج حتى أتى منزل الرجل قائلاً قولوا له هذا على بن الحسين، فخرج إلينا متوثبًا للشر وهو لا يشك أنه إنّما جاءه مكافئًا له على بعض ما كان منه، فقال له على بن الحسين عليهما

السّلام: يا أخى إنّك كنت قد وقفت علىّ آنفًا فقلت وقلت، فإن كنت قلت ما فىّ فأستغفر الله منه، وإن كنت قلت ما ليس فىّ فغفر الله لك، فقبّل الرّجل ما بين عينيه وقال بل قلت فيك ما ليس فيك وأنا أحق به.

السجاد نهر العطاء

وروى المفيد عن ابن إسحاق قال: كان بالمدينة العديد من الأسر التى يأتيهم رزقهم وما يحتاجون إليه لا يدرون من أين يأتيهم، فلمّا مات علىّ بن الحسين عليهما السّلام فقدوا ذلك.

السجاد عليه السلام بين الناس

حج هشام بن عبد الملك فى خلافة أبيه، فطاف بالبيت فلما أراد أن يستلم الحجر لم يتمكن حتى نصب له منبر فاستلم وجلس عليه، وقام أهل الشام حوله، فبينما هو كذلك إذ أقبل على بن الحسين، فلما دنا من الحجر ليستلمه تنحى عنه الناس إجلالاً له وهيبة واحترامًا، وهو فى بزة حسنة، وشكل مليح، فقال أهل الشام لهشام من هذا؟ فقال: لا أعرفه ـ استنقاصًا له واحتقاراً لئلا يرغب فيه أهل الشام ـ فقال: الفرزدق: ـ وكان حاضراً ـ أنا أعرفه، فقالوا: ومن هو؟ فأشار الفرزدق يقول:

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
ينمى إلى ذروة العز التى قصرت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
يغضى حياءً ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم
بكفه خيزران ريحها عبق ... من كف أروع فى عرنينه شمم
مشتقة من رسول الله نبعته ... طابت عناصرها والخيم الشيم
ينجاب نور الهدى من نور غرته ... كالشمس ينجاب عن إشراقها الغيم

حمال أثقال أقوام إذا فدحوا ... حلو الشمائل تحلو عنده نعم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا
من جده دان فضل الأنبياء له ... وفضل أمته دانت لها الأمم
عم البرية بالإحسان فانقشعت ... عنها الغواية والإملاق والظلم
كلتا يديه غياث عم نفعهما ... يستوكفان ولا يعروهما العدم
سهل الخليقة لا تخشى بوادره ... يزينه اثنتان الحلم والكرم
لا يخلف الوعد ميمون بغيبته ... رحب الفناء أريب حين يعتزم
من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفر وقربهم منجى ومعتصم
يستدفع السوء والبلوى بحبهم ... ويستزاد به الإحسان والنعم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم ... فى كل حكم ومختوم به الكلم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم ... ولا يدانيهم قوم وإن كرموا
هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت ... والأسد أسد الشرى والبأس محتدم
يأبى لهم أن يحل الذم ساحتهم ... خيم كرام وأيد بالندى هضم
لا ينقص العدم بسطًا من أكفهم ... سيان ذلك إن أثروا وإن عدموا
أى الخلائق ليست فى رقابهم ... لأولية هذا أوله نعم
فليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم
من يعرف الله يعرف أولية ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الأمم

فغضب هشام منه لما عرف بذلك، وأمر بحبس الفرزدق بعسفان بين مكة والمدينة، فلما بلغ ذلك على بن الحسين، بعث إلى الفرزدق باثنى عشر ألف درهم، فلم يقبلها، وقال إنما قلت ما قلت لله عز وجل ونصرة للحق، وقيامًا بحق رسول الله ﷺ فى ذريته، ولست أعتاض عن ذلك بشىء. فأرسل إليه على بن الحسين يقول: قد علم الله صدق نيتك فى ذلك، وأقسمت عليك بالله لتقبلنها، فتقبلها منه.

الصحيفة السجادية

ترك لنا الإمام على بن الحسين الملقب بـ (زين العابدين) و(السجاد) كنزًا هو مجموع أدعيته المسمى بالصحيفة السجادية، ونقتبس من هذا الكنز دعاء (مكارم الأخلاق).

اللهم صلّ على محمّد وآله، وبلّغْ بإيْمانى أكْمل الإيْمان، واجْعلْ يقينى أفْضل اليقين، وانْته بنيّتى إلى أحْسن النيات، وبعملى إلى أحْسن الأعْمال.

اللهم وفّرْ بلطْفك نيّتى، وصحّحْ بما عنْدك يقينى، واسْتصْلحْ بقدْرتك ما فسد منّى.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله، واكْفنى ما يشْغلنى الإهْتمام به، واسْتعْملْنى بما تسْألنى غدًا عنْه واسْتفْرغْ أيّامى فيما خلقْتنى له، وأغْننى وأوْسعْ علىّ فى رزْقك، ولا تفْتنّى بالنّظر، وأعزّنى، ولا تبْتلينّى بالْكبْر، وعبّدْنى لك ولا تفْسدْ عبادتى بالْعجْب، وأجْر للنّاس على يدىّ الْخيْر، ولا تمْحقْه بالْمنّ، وهبْ لى معالى الأخْلاق، واعْصمْنى من الْفخْر.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله، ولا ترْفعْنى فىْ النّاس درجةً إلاّ حططْتنى عنْد نفْسى مثْلها، ولا تحْدثْ لى عزًا ظاهرًا إلاّ أحْدثْت لى ذلّةً باطنةً عنْد نفْسى بقدرها.

اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، ومتّعْنى بهدى صالح لا أسْتبْدل به، وطريقة حقّ لا أزيْغ عنْها، ونيّة رشد لا أشكّ فيها، وعمّرْنى ما كان عمْرى بذْلة فى طاعتك، فإذا كان عمْرى مرْتعًا للشّيْطان فاقْبضْنى إليْك قبْل أنْ يسْبق مقْتك إلىّ، أوْ يسْتحْكم غضبك علىّ.

اللهمّ لا تدعْ خصْلةً تعاب منّى إلاّ أصْلحْتها، ولا عائبةً أؤنّب بها إلاّ حسّنْتها، ولا أُكْرومةً فىّ ناقصة إلاّ أتْممْتها.

اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، وأبْدلْنى منْ بغْضة أهْل الشّنآن المحبّة ومنْ حسد أهْل الْبغْى الْمودّة، ومنْ ظنّة أهْل الصّلاح الثّقة، ومنْ عداوة الأدْنيْن الْولاية، ومنْ عقوق ذوى الأرْحام الْمبرّة، ومنْ خذْلان الأقْربين النّصْرة، ومنْ حبّ الْمدارين تصْحيح الْمقة، ومنْ ردّ الْملابسين كرم الْعشْرة، ومنْ مرارة خوْف الظّالمين حلاوة الأمنة.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله، واجْعلْ لىْ يدًا على منْ ظلمنى ولسانًا على منْ خاصمنى وظفرًا بمنْ عاندنى، وهبْ لى مكْرًا على منْ كايدنى وقدْرةً على من اضْطهدنى وتكْذيبًا لمنْ قصبنى وسلامةً ممّنْ توعّدنى، ووفّقْنى لطاعة منْ سدّدنى ومتابعة منْ أرْشدنى.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله، وسدّدْنى لأنْ أعارض منْ غشّنى بالنّصْح وأجْزى منْ هجرنى بالْبرّ وأثيب منْ حرمنى بالْبذْل وأكافى منْ قطعنى بالصّلة وأخالف من اغْتابنى إلى حسْن الذّكْر، وأنْ أشْكر الْحسنة وأغْضى عن السيئة.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله، وحلّنى بحلْية الصّالحين، وألْبسْنى زينة المتّقين فىْ بسْط الْعدْل وكظْم الْغيْظ وإطْفاء النّائرة وضمّ أهْل الْفرْقة وإصْلاح ذات الْبيْن وإفْشاء الْعارفة، وستْر الْعائبة، ولين الْعريكة، وخفْض الْجناح، وحسْن السّيرة، وسكون الرّيح، وطيْب المخالقة، والسّبْق إلى الْفضيلة، وإيْثار التّفضّل، وترْك التّعْبير والإفْضال على غيْر الْمسْتحقّ، والقوْل بالْحقّ وإنْ عزّ واسْتقْلال الخيْر وإنْ كثر منْ قوْلى وفعْلى، واسْتكْثار الشّر وإنْ قلّ منْ قوْلى وفعْلى، وأكْملْ ذلك لى بدوام الطّاعة ولزوم الْجماعة ورفْض أهْل الْبدع ومسْتعْمل الرّأى المخْترع.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله، واجْعلْ أوْسع رزْقك علىّ إذا كبرت، وأقْوى قوّتك فىّ إذا نصبْت، ولا تبْتلينّى بالكسل عنْ عبادتك ولا الْعمى عنْ سبيلك ولا بالتّعرّض لخلاف محبّتك، ولا مجامعة منْ تفرّق عنْك، ولا مفارقة من اجْتمع إليْك.

اللهمّ اجْعلْنى أصوْل بك عنْد الضّرورة وأسْألك عنْد الْحاجة، وأتضرّع إليْك عنْد الْمسْكنة، ولا تفْتنّى بالاسْتعانة بغيْرك إذا اضْطررْت، ولا بالْخضوع لسؤال غيْرك إذا افْتقرْت، ولا بالتّضرّع إلى منْ دونك إذا رهبْت فأسْتحقّ بذلك خذْلانك ومنْعك وإعْراضك يا أرْحم الرّاحمين.

اللهمّ اجْعلْ ما يلْقى الشّيْطان فى روْعى من التّمنّى والتّظنّى والْحسد ذكْرا لعظمتك، وتفكّرا فى قدْرتك، وتدْبيرا على عدوّك، وما أجْرى على لسانى منْ لفْظة فحْش أوْ هجْر أوْ شتْم عرْض أوْ شهادة باطل أو اغْتياب مؤْمن غائب أوْ سبّ حاضر، وما أشْبه ذلك نطْقًا بالحمد لك وإغْراقًا فى الثّناء عليْك، وذهابًا فى تمْجيدك وشكرًا لنعْمتك واعْترافًا بإحْسانك وإحْصاء لمننك.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله، ولا أظْلمنّ وأنْت مطيقٌ للدّفْع عنّى، ولا أظْلمنّ وأنْت القادر على الْقبْض منّى، ولا أضلّنّ وقدْ أمْكنتْك هدايتى، ولا أفْتقرنّ ومنْ عنْدك وسْعى، ولا أطْغينّ ومنْ عنْدك وجْدى.

اللهمّ إلى مغفرتك وفدْت، وإلى عفوك قصدْت، وإلى تجاوزك اشْتقْت، وبفضْلك وثقْت، وليس عندى ما يوجب لى مغفرتك، ولا فى عملى ما أسْتحقّ به عفوك، وما لى بعد أنْ حكمْت على نفْسى إلاّ فضْلك، فصلّ على محمد وآله وتفضّلْ علىّ اللهمّ وأنطقْنى بالهدى، وألهمْنى التّقوى ووفّقْنى للّتى هى أزْكى واسْتعْملْنى بما هو أرْضى.

اللهمّ اسلكْ بى الطّريقة المثلى، واجعلْنى على ملّتك أموت وأحْيا.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله، ومتّعْنى بالاقتصاد، واجعلْنى من أهْل السّداد ومن أدلة الرّشاد، ومن صالحى الْعباد، وارْزقْنى فوْز الْمعاد وسلامة المرصاد.

اللهمّ خذْ لنفْسك من نفْسى ما يخلّصها، وأبق لنفْسى من نفْسى ما يصْلحها، فإنّ نفْسى هالكةٌ أو تعْصمها.

اللهمّ أنْت عدّتى إنْ حزنْت، وأنْت منْتجعى إنْ حرمْت، وبك استغاثتى إنْ كربْت، وعنْدك ممّا فات خلفٌ، ولما فسد صلاحٌ، وفيما أنْكرْت تغييرٌ. فامننْ علىّ قبْل البلاء بالعافية، وقبْل الطّلب بالْجدة، وقبْل الضّلال بالرّشاد، واكْفنى مؤونة معرّة العباد، وهبْ لى أمْن يوم الْمعاد، وامْنحنى حسْن الإرشاد.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله، وادرأ عنّى بلطْفك، واغْذنى بنعْمتك، وأصْلحْنى بكرمك، وداونى بصنْعك، وأظلّنى فى ذراك، وجلّلْنى رضاك، ووفّقنى إذا اشتكلتْ علىّ الأمور لأهْداها، وإذا تشابهت الأعْمال لأزْكاها، وإذا تناقضت الْملل لأرْضاها.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله، وتوّجْنى بالْكفاية، وسمْنى حسْن الْولاية، وهبْ لى صدْق الْهداية، ولا تفْتنّى بالسّعة، وامْنحْنى حسْن الدّعة، ولا تجْعلْ عيْشى كدّا كدّا، ولا تردّ دعائى علىّ ردّا فإنّى لا أجعل لك ضدّا ولا أدْعو معك ندّا.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله، وامنعْنى من السّرف وحصّنْ رزْقى من التّلف، ووفّرْ ملكتى بالبركة فيه، وأصبْ بى سبيل الهداية للبرّ فيما أنْفق منه.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله واكْفنى مؤونة الاكتساب، وارزقْنى من غير احتسابٍ، فلا أشْتغل عن عبادتك بالطّلب ولا أحْتمل إصْر تبعات المكسب.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله، وصنْ وجْهى باليسار، ولا تبتذلْ جاهى بالإقتار فأسترْزق أهْل رزْقك، وأستعْطى شرار خلْقك، فأفْتتن بحمْد من أعْطانى، وأبْتلى بذمّ من منعنى وأنت من دونهم ولىّ الإعطاء والمنع.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله وارزقْنى صحّةً فى عبادةٍ، وفراغًا فى زهادةٍ، وعلْمًا فى استعمال، وورعًا فى إجمال.

اللهم اختمْ بعفْوك أجلى، وحقّقْ فى رجاء رحمتك أملى، وسهّلْ إلى بلوغ رضاك سبلى، وحسّن فى جميع أحوالى عملى.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله، ونبّهْنى لذكْرك فى أوقات الغفلة، واستعملْنى بطاعتك فى أيّام المهلة، وانهجْ لى إلى محبّتك سبلاً سهْلةً أكملْ لى بها خير الدنيا والآخرة.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله كأفْضل ما صلّيْت على أحد من خلْقك قبْله، وأنت مصلٍّ على أحد بعْده، وآتنا فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنةً، وقنى برحمتك عذاب النّار.

الإمام السجاد ورسالة الحقوق

قال زين العابدين السجاد:

اعلم أن الله عز وجل أوجب عليك حقوقًا محيطة بك فى كل حركة تحركتها أو سكنة سكنتها، أو حال حلتها أو منزلة نزلتها، أو جارحة قلبتها أو آلة تصرفت فيها. فأكبر حقوق الله تعالى عليك ما أوجب عليك لنفسه من حقه الذى هو أصل الحقوق، ثم ما أوجب الله عز وجل عليك لنفسك من قرنك إلى قدمك، على اختلاف جوارحك، فجعل عز وجل للسانك عليك حقّا، ولسمعك عليك حقّا، ولبصرك عليك حقّا، وليدك عليك حقا، ولرجلك عليك حقّا، ولبطنك عليك حقّا، ولفرجك عليك حقّا، فهذه الجوارح السبع التى بها تكون الأفعال. ثم جعل عز وجل لأفعالك عليك حقوقًا: فجعل لصلاتك عليك حقّا، ولصومك عليك حقّا، ولصدقتك عليك حقّا، ولهديك

عليك حقّا، ولأفعالك عليك حقوقًا. ثم يخرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوى الحقوق عليك، فأوجبها عليك حقوق أئمتك، ثم حقوق رعيتك، ثم حقوق رحمك. فهذه حقوق يتشعب منها حقوق[1].

***

(١) وقد قامت دار الأضواء للنشر بيروت ـ لبنان ـ بطباعة شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين كاملة فى جزأين.

obeikandl.com

(٥) محمد بن على بن الحسين
(محمد الباقر)
(٥٧ ـ ١١٤هـ)

وكان الإمام بعد على بن الحسين هو محمد بن على، ولقبه الباقر، أى الذى خاض غمار بحار العلم وسبر أغواره وبقر أعماقه.

ولد عليه السلام بالمدينة سنة سبعٍ وخمسين من الهجرة، وقبض فيها سنة أربع عشرة ومائة وسنه يومئذ سبعٌ وخمسون سنة، وقبره بالبقيع من مدينة الرّسول عليه وآله السّلام.

يصفه ابن كثير[١] فيقول: وسمى الباقر لبقره العلوم واستنباطه الحكم، كان ذاكرًا خاشعًا صابرًا وكان من سلالة النبوة، رفيع النسب عالى الحسب، وكان عارفًا بالخطرات، كثير البكاء والعبرات معرضًا عن الجدال والخصومات.

وقال أبو زهرة[٢]:

لقب بالباقر لأنه بقر العلم بقرًا، أى أظهر مخبآته وأسراره، ورث علم النبوة عن آبائه وأجداده، وكان مقصد العلماء من كل البلاد الإسلامية، سواء منهم الشيعة والسنة، وكان ممن يقصده سفيان الثورى، وسفيان بن عيينة، محدث مكة، وأبو حنيفة.

وعن جابر الجعفى: قال لى محمد بن على: يا جابر إنى لمحزون، وإنى لمشتغل القلب. قلت: وما حزنك وشغل قلبك؟ قال: يا جابر، إنه من دخل قلبه صافى دين الله عز وجل شغله عما سواه، يا جابر ما الدنيا؟ ما عسى أن تكون؟ هل هى إلا مركبًا ركبته؟ أو ثوبًا لبسته؟ أو امرأة أصبتها؟ يا جابر، إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم، ولم يصمهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم من الفتنة، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة، ففازوا بثواب الأبرار، إن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة، وأكثرهم لك معونة، إن نسيت ذكروك وإن ذكرت أعانوك، قوالين بحق الله، قوامين بأمر الله، قطعوا لمحبة ربهم عز وجل، ونظروا إلى الله وإلى محبته بقلوبهم، وتوحشوا من الدنيا لطاعة محبوبهم، وعلموا أن ذلك من أمر

(١) البداية والنهاية.
(٢) الإمام الصادق.

خالقهم، فأنزلوا الدنيا حيث أنزلها مليكهم، كمنزل نزلوه ثم ارتحلوا عنه وتركوه، وكماء أصبته فى منامك فلما استيقظت إذا ليس فى يدك منه شيء، فاحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته.

وعن خلف بن حوشب: قال أبو جعفر (الإمام الباقر): الإيمان ثابت فى القلب، واليقين خطرات، فيمر اليقين بالقلب فيصير كأنه زبر الحديد ويخرج منه فيصير كأنه خرقة بالية، وما دخل قلب عبد شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدره أو أكثر منه.

وقال بشر بن الحارث الحافى[1] سمعت سفيان الثورى يقول: سمعت منصوراً يقول: سمعت محمد بن على يقول: الغنى والعز يجولان فى قلب المؤمن، فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل استوطناه.

وقال الباقر: إياكم والخصومة، فإنها تفسد القلب، وتورث النفاق.

ويروى الشيخ المفيد[2] عن ميمون القداح عن جعفر (الصادق) بن محمد عن أبيه (الباقر) قال دخلت على جابر بن عبد الله رحمة الله عليه بعد أن كف بصره فسلمت عليه فرد السلام ثم قال لى من أنت؟ فقلت: محمد بن على بن الحسين؛ فقال: إن رسول الله ﷺ وآله يقرئك السلام، فقلت: وعلى رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته، وكيف ذلك يا جابر؟ فقال: كنت معه ذات يوم فقال لى «**يا جابر لعلك أن تبقى حتى تلقى رجلاً من ولدى يقال له محمد بن على بن الحسين يهب الله له النور والحكمة، فأقرئه منى السلام**».

وقد روى أبو جعفر عليه السلام أخبار الأنبياء وكتب عنه الناس المغازى والسنن، واعتمدوا عليه فى مناسك الحج التى رواها عن رسول الله ﷺ وآله وكتبوا عنه تفسير القرآن، وروت عنه الخاصة والعامة الأخبار، وناظر من كان يرد عليه من أهل الآراء وحفظ عنه الناس كثيراً من علم الكلام.

بين الخوارج التكفيريين والإمام الباقر

جاء نافع بن الأزرق إلى محمّد بن علىّ فجلس بين يديه فسأله عن مسائل فى الحلال والحرام، فقال له أبو جعفر عليه السلام فى عرْض كلامه: «قلْ لهذه المارقة بم استحللتم فراق

(١) من أعلام الصوفية.
(٢) الإرشاد.

أمير المؤمنين عليه السلام وقد سفكتم دماءكم بين يديه فى طاعته والقربة إلى الله بنصرته؟! فسيقولون لك إنه حكّم فى دين الله، فقلْ لهم قد حكّم الله تعالى فى شريعة نبيّه عليه السلام رجلين من خلقه فقال تعالى: ﴿**فَابْعَثُوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِه وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا**﴾ [النساء: ٣٥]. وحكّم رسول الله صلّى الله عليه وآله سعد بن معاذ فى بنى قريْظة، فحكم فيهم بما أمضاه الله، أوما علمتم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنما أمر الحكمين أن يحْكما بالقرآن ولا يتعدّياه؟ واشترط ردّ ما خالف القرآن من أحكام الرّجال، وقال حين قالوا له: حكّمت على نفسك من حكم عليك، فقال: ما حكّمت مخلوقًا وإنّما حكّمت كتاب الله، فأين تجد المارقة تضليل من أمر بالحكم بالقرآن واشترط ردّ ما خالفه؟!». فقال نافع بن الأزرق: هذا كلامٌ ما مرّ بسمعى قطّ ولا خطر منّى ببالٍ، وهو الحقّ إن شاء الله.

جوده وكرمه عليه السلام

وكان عليه السلام ظاهر الجود فى الخاصّة والعامّة، معروفًا بالفضل والإحسان مع كثرة عياله وتوسّط حاله.

روى الشيخ المفيد عن الحسن بن كثير قال شكوت إلى أبى جعفر محمّد بن علىٍّ عليه السلام الحاجة وجفاء الإخوان، فقال: بئسَ الأخ أخٌ يرعاك غنيّا ويقطعك فقيرًا. ثمّ أمر غلامه فأخرج كيسًا فيه سبعمائة درهمٍ وقال: أنفقْ هذه، فإذا نفدتْ فأعلمْنى.

وروى سليمان بن قرْم قال: كان أبو جعفر محمّد بن علىٍّ عليه السلام يجيْزنا بالخمسمائة درهم إلى الستّمائة إلى الألف درهم، وكان لا يملّ من صلة إخوانه وقاصديه ومؤمّليه وراجيه.

وروى عنه عن آبائه عليهم السّلام: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يقول **«أشدّ الأعمال ثلاثةٌ: مواساة الإخوان فى المال، وإنصاف النّاس من نفسك، وذكر الله على كلّ حالٍ»**.

حديثى حديث أبى؛؛

وسئل عليه السلام عن الحديث يرسله ولا يسنده، فقال إذا حدثت الحديث فلم أسندْه،

فسندى فيه أبى عن جدّى عن أبيه عن جدّه رسول الله صلّى الله عليه وآله عن جبرائيل عليه السلام عن الله عزّ وجلّ.

وكان يقول: ما ينْقم النّاس منّا؟! نحن أهل بيت الرّحمة وشجرة النّبوة، ومعدن الحكمة، وموضع الملائكة ومهبط الوحى.

وكانت مدّة إمامته وقيامه مقام أبيه قبل وفاته تسع عشرة سنةً.

***

الإمام الباقر والأوضاع السياسية

يحلو أحيانًا لبعض المؤرخين أن يقدموا للناس صورة مغايرة للواقع عن حياة أئمة أهل البيت، ومن بينهم الإمامان الجليلان السجاد والباقر عليهما السلام، ثم جاء من بعدهما الإمام الصادق جعفر بن محمد الذى عاصر نهاية الحقبة الأموية وبداية الحقبة العباسية.

مدرسة المؤرخين (الحربيين) لا ترى من حركة التاريخ إلا الحروب والمعارك وإحصاء عدد الجماجم التى حملت على الرماح من بلد إلى بلد، ويتجاهلون الأهمية البالغة للعلماء والمفكرين، ومن باب أولى لأئمة أهل البيت عليهم السلام، فى إرشاد الأمة وتوجيهها نحو جادة الطريق وفى صناعة حاضرها ومستقبلها.

ولو تأملنا فى رسالة الحقوق التى كتبها الإمام السجاد وأرسلها إلى شيعته وأنصاره نرى أنها تجمع علوم السياسة والأخلاق والاجتماع فى مكان واحد، إذ لا فارق بين هذه المجالات، وهذا هو الشمول الحقيقى للإسلام.

كما أن نمو الكيان الشيعى وتطوره ورسوخ أقدامه داخل المجتمع المسلم، سمح له أن يؤدى دوره فى مقارعة الظلم الأموى ممثلاً فى تلك الثورات المناهضة للحكم الأموى، التى عجلت بسقوط هذا النظام، مثل ثورة التوابين، وثورة المختار، وثورة الشهيد العظيم زيد بن على بن الحسين رضوان الله عليه.

وإذا كانت السياسة عند البعض لا تعدو كونها حمل السيف والمطالبة بالسلطة فهى فى مدرسة أهل البيت مفهوم شامل تبدأ من العبادة وتمر بالأخلاق والاجتماع والعلم

والثقافة، وفى النهاية تأتى السلطة لتتوج التطور الاجتماعى نحو الأفضل، لا لتصادر عليه، كما أن السلطة لا يمكنها أن تصنع مجتمعًا صالحًا من العدم.

***

أهل البيت فى العصر العباسى

تجاوز العباسيون فى عدائهم لأهل البيت عليهم السلام كل ما فعله الأمويون، بل زادوا عليهم، وسننقل هنا بعض النماذج ليطلع القارئ الكريم على حجم المظالم التى تعرض لها أهل البيت وشيعتهم على مر العصور.

يحكى المؤرخون أن العباسيين تحالفوا فى مبدأ أمرهم مع الجناح الحسنى لأهل البيت الذى كان يرغب فى الثورة على بنى أمية والإطاحة بهم، وعقدت عدة اجتماعات من بينها اجتماع الأبواء الذى بايع فيه أبو جعفر المنصور ـ الذى صار ثانى الخلفاء العباسيين ـ محمد بن عبد الله بن الحسن الذى كان يظن أنه مهدى أهل البيت، وقد بايع أبو جعفر لمحمد بن عبد الله مرتين، والعهدة على ابن جرير الطبرى[1] وأبو الفرج الأصفهانى[2]، والذى روى عن عبد الله بن سعد الجهنى، قال: بايع أبو جعفر محمدا مرتين، أنا حاضر أحدهما بمكة فى المسجد الحرام، فلما خرج أمسك له بالركاب ثم قال أما إنه لو أفضى إليكم الأمر نسيت لى هذا الموقف؟.

ثم قال ابن جرير الطبرى[3]:

> لما استخلف أبو جعفر [المنصور، الخليفة العباسى الثانى]، لم يكن له همة إلا طلب محمد والمسألة عنه وما يريد، فدعا بنى هاشم رجلاً رجلاً كلهم يخليه فيسأله عنه، فيقولون يا أمير المؤمنين قد علم أنك عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم، فهو يخافك على نفسه وهو لا يريد لك خلافًا ولا يحب لك معصية.
>
> ثم أرسل أبو جعفر المخبرين للتفتيش عنه (اشترى أبو جعفر رقيقًا من رقيق الأعراب ثم أعطى الرجل منهم البعير والبعيرين وفرقهم فى طلب محمد فى ظهر المدينة فكان الرجل منهم يرد الماء كالمار وكالضال فيفرون عنه).

(١) تاريخ الرسل والملوك «تاريخ الطبرى» جـ٧ ص ٥١٧.
(٢) مقاتل الطالبيين ص ٢٠٩.
(٣) تاريخ االرسل والملوك «تاريخ الطبرى» جـ٧ ص ٥١٩.

وبعد أن أعيته الحيل والوسائل فى الإمساك بهم، أمر بالقبض على بقية أبناء الحسن ابن على عليه السلام، وهم الحسن وإبراهيم ابنا الحسن بن الحسن، والحسن بن جعفر بن الحسن ابن الحسن، وسليمان وعبد الله ابنا داود بن الحسن بن الحسن، ومحمد وإسماعيل وإسحاق أبناء إبراهيم بن الحسن بن الحسن، وعباس بن الحسن بن على بن أبى طالب، وعلى بن الحسن بن الحسن العابد، وأمر الحدادين بوضعهم فى الأغلال، فهؤلاء أحد عشر من أبناء الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب عليهم جميعًا سلام الله ورحمته ورضوانه. وتوفى على بن الحسن وهو ساجد فى حبس أبى جعفر، فقال عبد الله: أيقظوا ابن أخى فإنى أراه قد نام فى سجوده، قال فحركوه فإذا هو قد فارق الدنيا.

حبسهم أبو جعفر ستين ليلة ما يدرون ليلاً ولا نهارًا، ولا يعرفون وقت الصلاة إلا بتسبيح على بن الحسن الذى قال، إن لنا فى الجنة درجة لم نكن لنبلغها إلا بهذه البلية أو بما هو أعظم منها، وإن لأبى جعفر فى النار موضعًا لم يكن ليبلغه حتى يبلغ منا مثل هذه البلية أو أعظم منها.

وأتى بهم أبو جعفر فنظر إلى محمد بن إبراهيم بن الحسن فقال أنت ديباج الأصفر[1]؟ قال نعم، قال: أما والله لأقتلنك قتلة ما قتلتها أحدًا من أهل بيتك، ثم أمر بأسطوانة مبنية ففرقت ثم أدخل فيها فبنيت عليه وهو حى.

وكان محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخاهم لأمهم، وكان به هوى لهم وكان عبد الله بن الحسن يحبه محبة شديدة وأمه فاطمة بنت الحسين؛ حيث روى أبو الفرج وابن جرير الطبرى نقلاً عن محمد بن هاشم بن البريد مولى معاوية، قال: كنت بالربذة فأتى ببنى الحسن مغلولين معهم العثمانى كأنه خلق من فضة، فأقعدوا فلم يلبثوا أن خرج رجل من عند أبى جعفر المنصور فقال أين محمد بن عبد الله العثمانى؟ فقام فدخل، فلم نلبث أن سمعنا وقع السياط، قال فأخرج كأنه زنجى قد غيرت السياط لونه وأسالت دمه وأصاب سوط منها إحدى عينيه فسالت، وأقعد إلى جنب أخيه عبد الله بن الحسن فعطش فاستسقى، فقال عبد الله بن الحسن من يسقى ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ماء؟ فتحاماه الناس وجاءه خراسانى بماء فسلمه إليه فشرب.

قال ابن جرير[2]: فضربه أبو جعفر مائة وخمسين سوطًا، فبلغت منه كل مبلغ وأبو جعفر يقذف عرضه وعرض ابنته الطاهرة سليلة بيت العصمة والنبوة، فأصاب سوط

(١) من شدة حسنه.
(٢) تاريخ الرسل والملوك «تاريخ الطبرى» جـ ٧ ص ٥٤٢.

منها وجهه، فقال له ويحك اكفف عن وجهى فإن له حرمة من رسول الله ﷺ، قال فأغرى أبو جعفر، فقال للجلاد الرأس الرأس، فضربه على رأسه نحوًا من ثلاثين سوطًا، ثم دعا بساجور من خشب شبيه به فى طوله ـ وكان طويلاً ـ فشد فى عنقه وشدت به يده ثم أخرج به مقيدًا، فلما طلع به من حجرة أبى جعفر وثب إليه مولى له فقال: بأبى أنت وأمى ألا ألوثك بردائى؟ قال بلى جزيت خيرًا فوالله لشفوف إزارى أشد على من الضرب الذى نالنى، ألقى عليه المولى الثوب ومضى به إلى أصحابه المحبوسين.

كنز المنصور العباسى

هلك المنصور الدوانيقى[1] الذى تحكى الحكايات شحه وحبه لجمع المال عام مائة وثمان وخمسين وعمره خمس وستون سنة، أى بعد الإمام الصادق عليه السلام بعشرة أعوام، وقال لابنه المهدى قبل موته (يا بنى إنى قد جمعت لك من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبلى، وجمعت لك من الموالى ما لم يجمعه خليفة قبلى)، وترك له إلى جانب هذه الأموال كنزًا من نوع أغرب من الخيال، كنزًا من الأجساد الطاهرة لشهداء الطالبيين، وكما يروى ابن جرير الطبرى[2] أيضًا:

(لما عزم المنصور على الحج، دعا ريطة بنت أبى العباس زوجة المهدى، وكان المهدى بالرى قبل شخوص أبى جعفر، فأوصاها بما أراد وعهد إليها ودفع إليها مفاتيح الخزائن وأحلفها وأكد الأيمان ألا تفتح بعض تلك الخزائن ولا تطلع عليها أحدًا إلا المهدى، ولا هى، إلا أن يصح عندها موته، فإذا صح ذلك اجتمعت هى والمهدى وليس معهما ثالث حتى يفتحا الخزانة، فلما قدم

(١) جاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى: . . كان فحل بنى العباس هيبة وشجاعة وحزمًا ورأيًا وجبروتًا، جماعًا للمال، تاركًا للهو واللعب، كامل العقل، جيد المشاركة فى العلم والأدب، فقيه النفس، قتل خلقًا كثيرًا حتى استقام ملكه، وهو الذى ضرب أبا حنيفة على القضاء، ثم سجنه فمات بعد أيام، وقيل إنه قتله بالسم لكونه أفتى بالخروج عليه، وكان فصيحًا بليغًا مفوهًا، خليقًا للإمارة، وكان غاية فى الحرص والبخل. فلقب «أبا الدوانيق» لمحاسبته العمال والصناع على الدوانيق والحبات ـ طبعة دار الجيل، ١٩٩٨ ص ٣١٥.

(٢) تاريخ الطبرى جـ٨ ص ١٠٦.

المهدى من الرى إلى مدينة السلام، دفعت إليه المفاتيح وأخبرته بعهد المنصور، فلما مات وولى المهدى الخلافة، فتح الباب ومعه ريطة فإذا أزج[1] كبير فيه جماعة من قتلى الطالبيين، وفى آذانهم رقاع فيها أنسابهم، وإذا فيهم أطفال ورجال شباب ومشايخ عدة كثيرة، فلما رأى ذلك المهدى ارتاع لما رأى، وأمر فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها وعمل عليهم دكان)[2].

المتوكل العباسى: ٢٣٢-٢٤٧ هجرية
وتدميره لضريح الإمام الحسين عليه السلام

إنه جعفر بن هارون الرشيد، وكان كما يقول أبو الفرج الأصفهانى[3]:

«شديد الوطأة على آل أبى طالب، غليظًا على جماعتهم، مهتمًا بأمورهم، شديد الغيظ والحقد عليهم وسوء الظن والتهمة لهم، واتفق له أن عبيد الله بن يحيى بن خاقان[4] يسىء الرأى فيهم، فحسن له القبيح فى معاملتهم، فبلغ فيهم ما لم يبلغه أحد من خلفاء بنى العباس قبله، وكان من ذلك أن كرب[5] قبر الحسين، وعفى آثاره ووضع على سائر الطرق مسالح[6] له لا يجدون أحدًا زاره إلا أتوه به فقتله أو أنهكه عقوبة.

***

(١) ضرب من الأبنية.
(٢) تاريخ الطبرى جـ٨ ص ١٠٤.
(٣) مقاتل الطالبيين، وانظر أيضا: تاريخ الطبرى جـ ٩ ص ١٨٥.
(٤) وزيره.
(٥) قام بهدمه وحرثه.
(٦) نقاط حراسة مسلحة.

(٦) جعفر بن محمد (الصادق)
(٨٣ ـ ١٤٨هـ)

وكان مولده عليه السلام بالمدينة سنة ثلاث وثمانين من الهجرة، وتوفى فى شوّال من سنة ثمان وأربعين ومائة وله خمسٌ وستّون سنةً، ودفن بالبقيع مع أبيه وجدّه وعمه الحسن عليهم السّلام، وأمه أمّ فرْوة بنت القاسم بن محمّد بن أبى بكر وجد أمه عبد الرحمن ابن أبى بكر، فعلى هذا ولده أبو بكر رضي الله عنه مرتين، وكانت إمامته عليه السلام أربعًا وثلاثين سنةً، ووصّى إليه أبوه أبو جعفر عليه السلام وصيّة ظاهرةً، ونصّ عليه بالإمامة نصّا جليّا.

روى محمّد بن أبى عمير عن هشام بن سالم عن أبى عبد الله جعفر بن محمّد عليهما السّلام قال: «لمّا حضرتْ أبى الوفاة قال: يا جعفر، أوصيك بأصحابى خيرًا؛ قلت: جعلْت فداك، والله لأدعنهم والرّجل منهم يكون فى المصر فلا يسأل أحدًا».

الشيخ أبو زهرة والإمام الصادق عليه السلام

يقول الشيخ أبو زهرة[1]:

جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، ولد عام ٨٠ هـ ومات سنة ١٤٨ هـ وكان مولده ووفاته بالمدينة المنورة، حيث تلقى علوم الحديث والقرآن والناسخ والمنسوخ، ولم تقف علومه عند دراسة الفقه والحديث والقرآن، فقد شغل عقله أيضًا بعلم الكون وما اشتمل عليه إجابة لقوله تعالى ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [يونس: ١٠١]. وكان تلميذه جابر بن حيان الطرطوسى قد ألف كتابًا يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق، وهى خمسمائة رسالة، ومهما كان الخلاف حول صحة نسبتها، فإننا نستطيع أن نقرر مطمئنين أن الإمام جعفر كان له علم بالكونيات وعُنِىَ بدراستها.

(١) الإمام الصادق.

obeikandl.com

ثم يقول الشيخ أبو زهرة[1]:

ما أجمع علماء الإسلام على اختلاف طوائفهم كما أجمعوا على فضل الإمام الصادق وعلمه، فأئمة السنة الذين عاصروه تلقوا عنه وأخذوا، وأخذ عنه مالك وبقية طبقته كسفيان بن عيينة وسفيان الثورى وغيرهم كثير، كما أخذ عنه أبو حنيفة واعتبره أعلم الناس وأعلمهم باختلاف الناس، وقد تلقى عنه الحديث رواية طائفة كبيرة من التابعين منهم يحيى بن سعيد الأنصارى وأيوب السختيانى وغيرهما، ولم يكن علمه مقصوراً على الحديث وفقهه، بل كان يدرس علم الكلام والأخلاق. والمعتزلة ـ ومن نهج منهاجهم ـ يعتبرونه من أئمتهم فى فهم العقائد على ضوء العقل. كما أشرنا إلى دراسته لعلم الكون.

ويتحدث الشيخ أبو زهرة عن الإلهام والكسب فى علم الإمام الصادق، فيقرر أن الإشراق النفسى هو سبيل للحكمة وطريق للمعرفة الصادقة، وأن الإلهام المجرد من غير دراسة وتعمق هو من قبيل الخوارق وليس من قبيل السنن الكونية الدارجة، ثم ينقل آراء الفرقاء حول علم الإمام الصادق الذى يرى الإمامية أنه علم إلهامى وليس بكسبى بينما يرى أبو زهرة أنه علم كسبى فيه إشراق.

الإمام الصادق وتلاميذه الأئمة

يقول المستشار عبد الحليم الجندى[2]، بعد أن عدد أسماء تلاميذ الإمام من العلماء: سفيان الثورى وعمرو بن عبيد مؤسس مدرسة الاعتزال وأبو حنيفة وابن أبى ليلى ومالك بن أنس إمام المدينة ويحيى بن سعيد وابن عيينة، ولندع لهؤلاء الأئمة وصف مكانهم من الإمام:

* يقول مالك بن أنس: «كنت أرى جعفر بن محمد، وكان كثير الدعابة والتبسم، إذا ذكر عنده النبى اخضر واصفر، ولقد اختلفت إليه زمانًا فما كنت أراه إلا على طهارة ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد والزهاد الذين يخشون الله . . . ولقد حججت معه سنة، فكلما استوت به راحلته عند الإحرام وهم بالتلبية، انقطع صوته وكاد أن يخر عن راحلته،

(١) الإمام الصادق.
(٢) الإمام الصادق.

فقلت يا بن رسول الله أوَلا بد أن تقول؟! قال كيف أجرؤ أن أقول لبيك وأخشى أن يقول الله عز وجل لا لبيك ولا سعديك . . .

* ويدخل الإمام المسجد فيأتى إليه تلميذ من تلاميذه، ابن أبى ليلى قاضى الكوفة فيقول له الإمام: أنت ابن أبى ليلى القاضى؟ ويجيب نعم، فينبهه الإمام إلى جلال خطر القضاء بقوله لا تأخذ مال هذا وتعطيه هذا، وتفرق بين المرء وزوجه، لا تخاف فى ذلك أحدًا . . فما تقول إذا جيء بأرض من فضة وسماء من فضة ثم أخذ رسول الله بيدك فأوقفك بين يدى ربك فقال يا ربى هذا قضى بغير ما قضيت!! .

* لما سئل ابن أبى ليلى أكنت تاركًا قولاً أو قضاء لرأى أحد؟ أجاب: لا إلا لرجل واحد هو جعفر بن محمد الصادق . . وابن أبى ليلى قاضى بنى أمية وبنى العباس وهم أعداء الإمام .

* ولما استفتى أبو حنيفة فى رجل أوصى «للإمام» بإطلاق الوصف، وقال هى لجعفر بن محمد، فهذا إعلان لتفرده بالإمامة فى عصره .

* ولئن كان مجدًا لمالك أن يكون أكبر أشياخ الشافعى أو مجدًا للشافعى أن يكون أكبر أساتذة ابن حنبل، فإن التلمذة للإمام الصادق قد سربلت بالمجد فقه المذاهب الأربعة لأهل السنة، أما الإمام الصادق فمجده لا يقبل الزيادة ولا النقصان، والإمام مبلغ للناس كافة علم جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والإمامة مرتبة، وتلمذة أئمة السنة له تشوف منهم لمقاربة صاحب المرتبة .

* انقطع أبو حنيفة إلى مجالس الإمام طوال عامين قضاهما بالمدينة، وفيهما يقول «لولا العامان لهلك النعمان» وكان لا يخاطب صاحب المجلس إلا بقوله «جعلت فداك يا بن رسول الله» .

ويقول المستشار الجندى[1] أيضًا :

ومناظرات الإمام ليست قاصرة على الفقهاء والمحدثين، بل هى أيضًا مع الزنادقة والملحدين، مثل الديصانى وابن أبى العوجاء الذى رآه الإمام بالحرم

(١) الإمام الصادق .

فقال له: ما جاء بك؟؟ فقال عادة الجسد وسنة البلد ولنبصر ما فيه الناس من الجنون والحمق ورمى الحجارة، فقال له الإمام: أنت بعد على عتوك وضلالك يا عبد الكريم؟؟ فذهب يتكلم، فقال الإمام لا جدال فى الحج ونفض رداءه من يده وقال: «إن يكن الأمر كما تقول وليس كما نقول، نجونا ونجوت، وإن يكن الأمر كما نقول وليس كما تقول نجونا وهلكت»[1]. وأى صبر فى حرية الفكر كمثل هذا الصبر من الإمام الصادق وحيث تؤدى المناسك.

كما يقول المستشار الجندى[2]:

ولم يصطدم مذهبه الفقهى بمذهب فقهى للسلطان، فبنو أمية وبنو العباس حتى عهده لم يكن لهم مذهب فقهى، فلم تظهر المذاهب رسميًا إلا فى أخريات القرن الثانى للهجرة، عندما صير أبو يوسف مذهب أبى حنيفة مذهب السلطان، واستعصمت المدينة بفقهها، ثم ظهر الشافعى فى أواخر القرن الثانى، كما أن الاعتزال لم يظهر إلا فى عصر المأمون فى فاتحة القرن الثالث، وبهذا أتيح للإمام فى مجلسه العلمى واقتداره الذى يسلم به الجميع أن يرسى فى أمنة واطمئنان قواعد منهج علمى ما يزال يعبر القرون باعتباره فتحًا من الفتوح التى فتحها الله على البشر، وفحوى المنهج أن العلم مشاهدة ونزاهة فكرية فى استخلاص النتائج، لا يقبل الله سواها من عالم أو متعلم.

ثم يورد المستشار الجندى بعض خصائص المنهج العلمى للإمام الصادق[3]:

ومن أدواته التعمق والتخصص، فالعلم لا يعطيك بعضه إلا أن تعطيه كلك، فأبان بن تغلب وزرارة بن أعين متخصصان فى الفقه، يفتيان الناس فى مسجد الرسول، وحمران بن أعين حجة فى علوم القرآن، ومؤمن الطاق للكلام، أى علم التوحيد، وهشام بن الحكم للكلام فى العقائد، والإمامة وأبان بن عثمان للكلام فى الاستطاعة وما إليها.

(١) وهذا هو المنطق نفسه الذى اتبعه ديكارت فى جدله حول الإيمان بالله فى بداية عصر التنوير.
(٢) الإمام الصادق ص ٢٥٦.
(٣) المرجع نفسه ص ٢٤٧.

لم يكن منهج الإمام الصادق عليه السلام قاصراً بحال على علوم الفقه والشريعة، بل كان منهجًا علميًا جامعًا، قدم للأمة الإسلامية وللعالم أجمع عددًا لا يستهان به من النوابغ، ومن بينهم جابر بن حيان مؤسس علم الكيمياء، حيث يقول المستشار الجندى[1]:

وربما كان الكلام المنقول عن جابر بن حيان أوضح كلام فى الدلالة على المنهج التجريبى الذى تعلمه فى مجلس الإمام أو من كتب الإمام . . يخاطب جابر الإمام فى مقدمة كتابه الأحجار بقوله «وحق سيدى لولا أن هذه الكتب باسم سيدى صلوات الله عليه لما وصلت إلى حرف من ذلك إلى الأبد . . » ويقول جابر فى كتابه الخواص «اتعب أولاً تعبًا واحدًا، واعلم ثم اعمل، فإنك لا تصل أولاً ثم تصل إلى ما تريد»، ويقول فى كتابه السبعين «من كان دربًا مجربًا كان عالمًا حقًا، ومن لم يكن دربًا لم يكن عالمًا، وحسبك بالدربة فى جميع الصنائع أن الصانع الدرب يحذق وغير الدرب يعطل . . . » ويحصل جابر طريقته فى عبارته المأثورة «عملته بيدى وبعقلى وبحثته حتى صح وامتحنته فما كذب»، وفى هذا المقام يقول أستاذ الفلسفة الإسلامية المعاصر الدكتور زكى نجيب محمود «فلو شئت تلخيصًا للمنهج الديكارتى كله، لم تجد خيرًا من هذا النص الذى أسلفناه عن جابر».

* وعندما توضع أقوال جابر فى القرن الثانى من الهجرة، إلى جوار أقوال الحسن بن الهيثم (٣٥٤-٤٣٠ هـ) بعد أكثر من قرنين ـ وقد عمل فى خدمة الدولة الفاطمية، وهى من دول الشيعة ـ تتأكد لنا طريقة التجربة والاستخلاص التى سلكها الإمام الصادق وأتقن العمل بها ووصفها جابر والحسن بن الهيثم، ويشهد بها من أهل أوروبا درابير[2] فيقول:

«كان الأسلوب الذى توخاه المسلمون سبب تفوقهم فى العلم، فإنهم تحققوا أن الأسلوب النظرى لا يؤدى إلى التقدم، وأن الأمل فى معرفة الحقيقة معقود بمشاهدة الحوادث ذاتها، ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم هو

(١) الإمام الصادق ص ٢٧٠.
(٢) النزاع بين العلم والدين.

(الأسلوب التجريبى)، وهذا الأسلوب هو الذى أرشدهم إلى اكتشاف علم الجبر وغيره من علوم الرياضة والحياة، وإننا نندهش حينما نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من ثمرات العلم فى هذا العصر».

ثم يذكر المستشار الجندى[1]:

أن جابراً يقرر إذ يقسم بحق الإمام، أنه استرشد فى طريقته هذه به، وأن علمه هو سبب توفيقه، وأن ممارسة جابر لطريقته مع إقرار الإمام له قد ضبطتها مدارسة أبى حنيفة للإمام، إذ نبهت القياسيين على وجوب ضبط القياس بوضع حدود له واستبعاد ما ليس منه.

قبض أبو عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام وهو ابن خمس وستين سنة فى عام ثمان وأربعين ومائة ١٤٨هـ، وعاش بعد أبى جعفر (محمد بن على الباقر) عليه السلام أربعًا وثلاثين سنة.

***

(١) الإمام الصادق ص ٢٧٣.

obeikandl.com

(٧) موسى بن جعفر (الكاظم)
(١٢٨ ـ ١٨٣هـ)

سابع أئمة أهل البيت، ذلك الإمام الممتحن المضطهد، المقتول شهيدًا غريبًا على يد طغاة بنى العباس.

وكان مولده عليه السلام بالأبواء سنة ثمان وعشرين ومائة، وقبض عليه السلام ببغداد فى حبْس السّنْدىّ بن شاهك لستٍّ خلوْن من رجَب سنة ثلاث وثمانين ومائة وله يومئذ خمسٌ وخمسون سنةً. وكانت مدة إمامته بعد أبيه خمسًا وثلاثين سنةً.

وكان يكنى أبا إبراهيم وأبا الحسن وأبا علىٍّ، ويعرف بالعبد الصّالح وينْعت أيضًا بالكاظم.

مات أبو جعفر المنصور عام مائة وثمان وخمسين، أى بعد وفاة الإمام الصادق عليه السلام بعشرة أعوام، أى أن الإمام الكاظم أمضى عشرة أعوام من إمامته فى ذلك العهد حيث كان المنصور يرسل الجواسيس لتأتيه بأخبار الإمام الكاظم عليه السلام له يتمكن من قتله.

ثم جاء من بعد المنصور ابنه المهدى الذى مكث فى الخلافة عشر سنين، قام باعتقال الإمام الكاظم أثناءها ثم أطلقه، ثم خلفه ابنه الهادى الذى مكث سنة وشهرين قبل أن يموت مسمومًا على يد أمه ـ وفقًا للروايات التاريخية ـ وجاء من بعده أخوه هارون الملقب بالرشيد عام ١٧٠هـ فأعاد اعتقال الإمام الكاظم سلام الله عليه، وكان ينقله من سجن إلى سجن، فسجنه أولاً فى البصرة عند عيسى بن جعفر، ثم سجنه عند الفضل ابن الربيع، ثم عند الفضل بن يحيى، وأرسل الإمام إلى الرشيد من سجنه برسالة فيها: يا هارون، ما من يوم ضراء انقضى عنى، إلا انقضى عنك من السراء مثله، حتى نجتمع أنا وأنت فى دار يخسر فيها المبطلون.

وكان الذى تولى قتله عليه السلام فى سجون العباسيين السندى بن شاهك الذى وضع له سمًّا فى طعام قدمه إليه، ويقال إنه جعله فى رطب أكل منه فمات فى اليوم الثالث.

obeikandl.com

وللإمام الكاظم مع هارون الرشيد أخبار كثيرة، ذكرها الشيخ الصدوق[1]، منها أن الرشيد قال له: كيف جوزتم للناس أن ينسبوكم إلى رسول الله ﷺ ويقولوا لكم يا أبناء رسول الله وأنتم أبناء على؟ فالمرء ينسب لأبيه وليس لأمه!

فأجابه الإمام: لو أن النبى نشر، وخطب إليك كريمتك، هل كنت تجيبه؟

قال الرشيد: سبحان الله، وكيف لا أجيبه؟

قال الإمام: ولكنه لا يخطب إلىَّ ولا أجيبه، لأنه ولدنى ولم يلدك.

ولما مات موسى عليه السلام أدخل السندى بن شاهك عليه الفقهاء ووجوه أهل بغداد، وفيهم الهيثم بن عدى وغيره، فنظروا إليه لا أثر به من جراح ولا خنق، وأشهدهم على أنه مات حتف أنفه، فشهدوا على ذلك، ثم أخرج ووُضع على الجسر ببغداد ونُودى هذا موسى بن جعفر قد مات فانظروا إليه، فجعل الناس يتفرسون فى وجهه وهو ميت، ثم حمل فدفن فى مقابر قريش فى باب التبن، وكانت هذه المقبرة لبنى هاشم والأشراف من الناس قديمًا.

***

(١) عيون أخبار الرضا.

obeikandl.com

(٨) الإمام على بن موسى (الرضا)
(١٤٨ ـ ٢٠٣هـ)

وكان الإمام بعْد أبى الحسن موسى بن جعفر ابنه أبا الحسن علىّ بن موسى الرضا عليهما السلام، وكان مولْده بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومائة، وقبض بطوس من أرْض خراسان [مشهد، إيران الآن] فى صفر من سنة ثلاث ومائتين وله يومئذ خمسٌ وخمسون سنة وكانتْ مدّة إمامته وقيامه بعْد أبيه فى خلافته عشرين سنةً.

كان أعلم أهل زمانه، ما سئل عن شىء إلا أجاب عنه.

قالوا له: يا بن رسول الله، الناس يروون عن جدك أنه قال: خلق الله آدم على صورته، فما رأيك؟

قال الإمام: مر رسول الله ﷺ برجلين يتسابان، يقول أحدهما للآخر قبح الله وجهك ووجهًا يشبهك، فقال النبى ﷺ للسابّ: **«لا تقل هذا، فإن الله خلق آدم على صورته»**.

وسأله سائل عن قول جعفر الصادق: لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين الأمرين. فقال الإمام: من يزعم أن الله يخلق أفعالنا لم يعذبنا عليها فقد قال بالجبر. ومن زعم أن الله فوض أمر الخلق والرزق إلى حجج، فقد قال بالتفويض، والقائل بالجبر كافر، والقائل بالتفويض مشرك، أما الأمر بين الأمرين فهو وجود السبيل إلى إتيان ما أمره الله به، وترك ما نهى عنه، أى أن الله أقدره على فعل الشر وتركه، وفعل الخير وتركه، وأمر بهذا ونهاه عن ذاك.

الرضا عليه السلام وولاية عهد المأمون

قال ابن جرير الطبرى[1]:

وفى هذه السنة «٢٠١» للهجرة، جعل المأمون على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن حسين بن على بن أبى طالب ولى عهد المسلمين والخليفة

(١) تاريخ الرسل والملوك «تاريخ الطبرى» جـ ٨ ص ٥٦٨.

obeikandl.com

من بعده، وسماه الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأمر جنده بطرح السواد ولبس ثياب الخضرة، وكتب بذلك إلى الآفاق.

ثم ذكر:

أن عيسى بن محمد بن أبى خالد بعد انصرافه من عسكره إلى بغداد، إذ ورد عليه كتاب من الحسن بن سهل «وزير المأمون» يعلمه أن أمير المؤمنين قد جعل على بن موسى بن جعفر بن محمد ولى عهده من بعده، وذلك أنه نظر فى بنى العباس وبنى على فلم يجد أحدًا هو أفضل ولا أورع ولا أعلم منه، وأنه سماها الرضا من آل محمد، وأمره بطرح لبس السود ولبس ثياب الخضرة وذلك يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين، ويأمره أن يأمر من قبله من أصحابه والجند والقواد بالبيعة له، وأن يأخذهم بلبس الخضرة فى أقبيتهم وقلانسهم وأعلامهم، ويأخذ أهل بغداد جميعًا بذلك، فلما أتى عيسى الخبر، دعا أهل بغداد إلى ذلك على أن يعجل لهم رزق شهر والباقى إذا أدركت الغلة، فقال بعضهم نبايع ونلبس الخضرة، وقال بعضهم لا نبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل، فمكثوا بذلك أيامًا، وغضب ولد العباس من ذلك واجتمع بعضهم إلى بعض وتكلموا فيه وقالوا نولى بعضنا ونخلع المأمون، وكان المتكلم فى هذا والمختلف والمتقلد له إبراهيم ومنصور ابنا المهدى، فأظهر العباسيون ببغداد أنهم بايعوا إبراهيم بن المهدى بالخلافة ومن بعده ابن أخيه إسحاق بن موسى المهدى، ثم اختلفوا وتضاربوا حتى إنهم لم يصلوا الجمعة يومًا.

ثم ذكر الطبرى[1] فى أحداث عام ٢٠٣هـ خبر موت على بنى موسى الرضا:

وكان ذلك فى آخر صفر، فأمر به المأمون فدفن عند قبر الرشيد، وكتب المأمون فى شهر ربيع الأول بموت (الإمام) الرضا بما دخل عليه من الغم بمصيبته، وكتب إلى بنى العباس والموالى وأهل بغداد يعلمهم موت على بن موسى، وأنهم إنما نقموا بيعته له من بعده ويسألهم الدخول فى الطاعة، فكتبوا إليه بأغلظ ما يكتب به إلى أحد.

(١) تاريخ الرسل والملوك «تاريخ الطبرى» جـ٨ ص ٥٦٨.

لماذا استعان المأمون بالإمام الرضا عليه السلام وليًّا للعهد؟

المتابع للأحداث يرى أن ولادة خلافة المأمون كانت ولادة عسرة، جاءت عن طريق حرب ضروس دارت رحاها بينه وبين أخيه محمد الملقب بالأمين، تلك الحرب التى استمرت من عام ١٩٣ حتى عام ١٩٨ للهجرة، وما إن استلم المأمون الخلافة حتى التهبت ثورة محمد بن إبراهيم بن طباطبا بقيادة أبى السرايا، وهى ثورة موالية لأهل البيت، تلك الثورة التى طال أمدها على غير المعهود واتسع مداها وهددت الدولة العباسية بالانهيار[١].

وهكذا وجد المأمون العباسى نفسه أمام حالة انشقاق وتفسخ للدولة العباسية، وكان الصراع يشتعل بين الإخوة فى كل مرحلة من مراحل انتقال السلطة، سواء بين الرشيد وأخيه الهادى، أو بين الأمين والمأمون، بينما يعيش المسلمون البسطاء أتعس أيامهم. فهل كانت استعانة المأمون بالإمام الرضا مناورة سياسية أم بسبب تشيعه؟

مشهد

الآن تعد مدينة مشهد من أهم مدن إيران، والسبب فى ذلك احتضانها للجثمان الطاهر للإمام الرضا عليه السلام، بينما اندثر موضع قبر هارون الرشيد ولا أحد يكترث بإحياء ذكراه أو زيارته، وهذا هو حال ملوك الدنيا من أصحاب البطش والقوة والجبروت، الذين تذل لهم أعناق الرجال ما بقيت لهم السلطة والجاه والمال، ثم يذهب ذكرهم أدراج الريح يوم أن تذهب عنهم تلك السلطة، وصدق الله العلى العظيم ﴿**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ**﴾

[الأنعام: ٩٤].

***

(١) انظر: كتابنا: الشيعة والثورة جـ ٢.

(٩) محمد بن على بن موسى (الجواد)
(١٩٥ ـ ٢٢٠هـ)

وكان الإمام بعد الرضا على بن موسى عليهما السلام، ابنه محمّد بن علىّ المرتضى بالنصّ عليه والإشارة من أبيه إليه وتكامل الفضْل فيه ، وكان مولده عليه السلام فى شهر رمضان سنة خمس وتسعين ومائة، وقبض ببغداد فى ذى القعدة سنة عشرين ومائتين وله يومئذ خمس وعشرون سنة، وكانت مدة خلافته لأبيه وإمامته من بعده سبع عشرة سنة.

وكان المأمون قد شغف بأبى جعفر (محمد بن على المرتضى) عليه السلام لمّا رأى من فضله مع صغر سنّه وبلوغه فى العلم والحكمة والأدب وكمال العقل ما لم يساوه فيه أحدٌ من مشايخ أهل الزمان، فزوجه ابْنته أمّ الفضل وحملها معه إلى المدينة وكان متوفّرًا على إكرامه وتعظيمه وإجلال قدْره.

ولمّا أراد المأمون أن يزوّج ابْنته أمّ الْفضْل أبا جعفر محمد بن علىّ عليهما السلام، بلغ ذلك العباسيّين فغلظ عليهم واسْتكْبروه وخافوا أنْ ينْتهى الأمر معه إلى ما انتهى مع الرضا عليه السلام، فخاضوا فى ذلك واجْتمع منهم أهل بيته فقالوا له ننشدك الله يا أمير المؤمنين أنْ تقيم على هذا الأمر الذى قد عزمْت عليه من تزويج ابن الرضا، فإنّا نخاف أن يخْرج به عنّا أمرٌ قد ملّكناه الله وينْزع منّا عزٌّ قد ألبسناه الله، وقد عرفْت ما بيننا وبين هؤلاء القوم قديمًا وحديثًا، وما كان عليه الخلفاء الراشدون قبْلك من تبعيدهم والتصغير بهم وقد كنّا فى وهلة من عملك مع الرضا ما عملْت، حتى كفانا الله المهمّ من ذلك، فالله الله أنْ تردّنا إلى غمٍّ قد انْحسر عنّا، واصْرفْ رأيك عن ابن الرضا واعْدلْ إلى منْ تراه من أهل بيتك يصْلح لذلك دون غيره. فقال لهم المأمون : أمّا ما بينكم وبين آل أبى طالب فأنتم السبب فيه، ولو أنْصفْتم القوْم لكان أولى بكم، وأمّا ما كان يفْعله منْ كان قبلى بهم، فقد كان قاطعًا للرحم أعوذ باللهّ من ذلك، ووالله ما ندمْت على ما كان منّى من استخلاف الرضا، ولقد سألته أنْ يقوم بالأمْر وأنزعه عن نفسى

فأبى، وكان أمْر الله قدراً مقْدوراً ، وأمّا أبو جعفر محمّد بن علىّ فقد اخْترْته لتبريزه على كافة أهْل الْفضْل فى العلم والْفضْل مع صغر سنّه والأعجوبة فيه بذلك، وأنا أرْجو أنْ يظْهر للناس ما قد عرفْته منه فيعْلموا أنّ الرأى ما رأيْت فيه .

ثم أقْبل على أبى جعفر عليه السلام فقال له : أتخْطب يا أبا جعفر؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين .

فقال له المأمون : اخْطبْ جعلْت فداك لنفْسك ، فقد رضيتك لنفْسى وأنا مزوّجك أمّ الفضْل ابنتى وإن رغم قومٌ لذلك .

فقال أبو جعفر عليه السلام : الحمد للّه إقراراً بنعمته ولا إله إلا الله إخْلاصًا لوحْدانيته، وصلىّ الله على محمّد سيّد بريّته والأصْفياء من عترته . أمّا بعْد : فقد كان من فضْل الله على الأنام أنْ أغناهم بالحلال عن الحرام ، فقال سبْحانه : ﴿**وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴿٣٢﴾**﴾ [النور : ٣٢] . ثمّ إنّ محمّد بن علىّ بن موسى يخْطب أمّ الفضْل بنْت عبد اللّه المأمون، وقد بذل لها من الصداق مهْر جدّته فاطمة بنت محمّد عليهما السلام، وهو خمسمائة درهم جياداً، فهلْ زوّجْته يا أمير المؤمنين بها على هذا الصداق المذكور؟

قال المأمون : نعم قد زوجْتك أبا جعفر أم الفضل ابْنتى على هذا الصداق المذكور، فهل قبلْت النكاح ؟ قال أبو جعفر عليه السلام قد قبلْت ذلك ورضيت به .

فأمر المأمون أنْ يقْعد الناس على مراتبهم فى الخاصّة والعامة .

قال الريان : ولم نلْبثْ أنْ سمعْنا أصْواتًا تشْبه أصْوات الملاحين فى محاوراتهم فإذا الخدم يجرّون سفينةً مصْنوعةً من فضة مشْدودة بالحبال من الإبريسم على عجل مملوءةً من الغالية، فأمر المأمون أنْ تخْضب لحىً الخاصّة من تلك الغالية[1] ثمّ مدّت إلىً دار العامّة فطيّبوا منها ووضعت الموائد فأكل الناس وخرجت الجوائز إلى كلّ قوم على قدرهم .

ثمّ نهض القوْم وودعوه ومضى عليه السلام من وقْته إلى المدينة، فلم يزلْ بها إلى أنْ أشْخصه المعتصم ـ الخليفة العباسى بعد المأمون ـ فى أوّل سنة عشرين ومائتين إلى بغداد، فأقام بها حتى توفى فى آخر ذى القعدة من هذه السنة، فدفن فى ظهْر جدّه أبى

(١) نوع من العطر الثمين .

الحسن موسى عليه السلام في مقابر قريش (الكاظمية الآن في بغداد)، وكان له يوم قبض خمسٌ وعشرون سنة وأشْهر. وكان منعوتًا بالْمنتجب والمرتضى، وخلّف بعده من الولد عليًّا ابْنه الإمام من بعده وموسى وفاطمة وأمامة ابنتيْه، ولم يخلّفْ ذكرًا غير منْ سمّيناه.

وقال محمد جواد مغنية[1]:

قد تجتمع النبوة مع صغر السن بدليل قوله تعالى ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾ [مريم: ١٢]. وقوله تعالى ﴿**فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾**﴾ [مريم: ٢٩ ـ ٣٠].

* * *

(١) الشيعة في الميزان.

obeikandl.com

(١٠) على بن محمد بن على الرضا (الإمام الهادى)
(٢١٢ ـ ٢٥٤هـ)

وكان الإمام بعد أبى جعفر عليه السلام ابنه أبا الحسن علىّ بن محمّد لثبوت النصّ عليه بالإمامة والإشارة إليه من أبيه بالخلافة.

وكان مولده بصريّا بالقرب من المدينة للنصف من ذى الحجة سنة اثْنتى عشرة ومائتين وتوفّى بسر من رأى ـ سامراء ـ فى رجب سنة أربع وخمسين ومائتين وله يومئذٍ إحدى وأربعون سنة وأشهر.

وكان المتوكّل قد أشْخصه مع يحيى بن هرْثمة بن أعْين من المدينة إلى سرّ منْ رأى فأقام بها حتى مضى لسبيله وكانتْ مدّة إمامته ثلاثًا وثلاثين سنة.

***

openkandl.com

(١١) الحسن العسكرى
(٢٣٢ ـ ٢٦٠هـ)

وكان الإمام بعد أبى الحسن بن محمد عليهما السلام ابنه أبا محمد الحسن بن على وقد اجتمعت صفات الفضل والعلم فيه من العلم والزهد وكمال العقل والعصمة والشجاعة والكرم وكثرة الأعمال المقربة إلى الله، وقد نص عليه أبوه الإمام الهدى وأشار بالإمامة له.

وكان مولده بالمدينة فى شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائتين.

كنيته أبو محمد ولقبه العسكرى لأنه كان يسكن فى سامراء بمحلة تعرف بمحلة العسكر. وقبض يوم الجمعة لثمان ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة ستين ومائتين وله يومئذ ثمان وعشرون سنة، ودفن فى داره بسر من رأى فى البيت الذى دفن فيه أبوه عليه السلام.

وكانت مدة إمامته ست سنين.

يروى الشيخ المفيد[1]: كان أحمد بن عبيد الله بن خاقان على الضياع والخراج ـ (قم)، فجرى فى مجلسه يومًا ذكر العلوية ومذاهبهم، وكان شديد الكره لهم والانحراف عنهم فقال: ما رأيت ولا عرفت بسر من رأى من العلوية مثل الحسن بن على بن محمد بن الرضا فى هديه وسكونه وعفافه ونبله وكبرته عند أهل بيته وبنى هاشم كافة، وتقديمهم إياه على ذوى السن منهم والخطر، وكذلك كانت حاله عند القواد والوزراء وعامة الناس، فأذكر أننى كنت يومًا على رأس أبى (عبيد الله بن خاقان) وهو يوم مجلسه للناس، إذ دخل حجابه فقالوا: أبو محمد ابن الرضا بالباب، فقال بصوت عال: ائذنوا له، فتعجبت مما سمعت منهم ومن جسارتهم أن يكنوا رجلاً بحضرة أبى، ولم يكن يكنى عنده إلا خليفة أو ولى عهد أو من أمر السلطان أن يكنى فدخل رجل أسمر حسن القامة جميل الوجه جيد البدن حديث السن له جلالة وهيئة حسنة، فلما نظر إليه أبى قام فمشى إليه خطى، ولا أعلمه فعل هذا بأحد من بنى هاشم والقواد، فلما دنا منه عانقه وقبل وجهه وصدره، وأخذ بيده وأجلسه على مصلاه الذى

(١) الإرشاد.

كان عليه، وجلس إلى جنبه مقبلاً عليه بوجهه، وجعل يكلمه ويفديه بنفسه وأنا متعجب مما أرى منه، إذ دخل حجابه وخاصة قواده، فقاموا بين مجلس أبى وبين باب الدار سماطين إلى أن يدخل ويخرج. فلم يزل أبى مقبلاً على أبى محمد يحدثه حتى نظر إلى غلمان الخاصة فقال حينئذ له: إذا شئت جعلنى الله فداك، ثم قال لحجابه: خذوا به خلف السماطين لا يراه، هذا يعنى الموفق، فقام وقام أبى فعانقه ومضى، فقلت لحجاب أبى وغلمانه: ويلكم من هذا الذى كنيتموه بحضرة أبى وفعل به أبى هذا الفعل؟ فقالوا: هذا علوى يقال له: الحسن بن على يعرف بـ «ابن الرضا»، فازددت تعجبًا، ولم أزل يومى ذلك قلقًا مفكرًا فى أمره وأمر أبى وما رأيته منه، حتى كان الليل وكانت عادته أن يصلى العتمة ثم يجلس فينظر فيما يحتاج إليه من المؤامرات وما يرفعه إلى السلطان. فلما صلى وجلس جئت فجلست بين يديه وليس عنده أحد فقال لى: يا أحمد، ألك حاجة؟ فقلت: نعم يا أبتى فإن أذنت سألتك عنها؟ فقال: قد أذنت، قلت: يا أبتى من الرجل الذى رأيتك بالغداة به ما فعلت من الإجلال والكرامة والتبجيل، وفديته بنفسك وأبويك؟؟

فقال: يا بنى ذاك إمام الرافضة الحسن بن على المعروف بـ «ابن الرضا»، ثم سكت ساعة وأنا ساكت، ثم قال: يا بنى لو زالت الإمامة عن خلفائنا بنى العباس ما استحقها أحد من بنى هاشم غيره لفضله وعفافه وهديه وصيانته وزهده وعبادته وجميل أخلاقه وصلاحه، ولو رأيت أباه رأيت رجلاً جزلاً نبيلاً فاضلاً. فازددت قلقًا وتفكرًا وغيظًا على أبى وما سمعت منه فيه ورأيت من فعله به، فلم يكن لى هم بعد ذلك إلا السؤال عن خبره والبحث عن أمره. فما سألت أحدًا من بنى هاشم والقواد والكتاب والقضاة والفقهاء وسائر الناس، إلا وجدته عنده فى غاية الإجلال والإعظام والمحل الرفيع والقول الجميل والتقديم له على جميع أهل بيته ومشايخه، فعظم قدره عندى إذ لم أر له وليًا ولا عدوًا إلا وهو يحسن القول فيه والثناء عليه.

ولما اعتل بُعث إلى أبى أن ابن الرضا قد اعتل، فركب من ساعته إلى دار الخلافة ثم رجع مستعجلاً ومعه خمسة من خدم أمير المؤمنين كلهم من ثقاته وخاصته فيهم نحرير، وأمرهم بلزوم دار الحسن وتعرف خبره وحاله، وبعث إلى نفر من المتطببين فأمرهم بالاختلاف إليه وتفقده صباح مساء، فلما كان بعد ذلك بيومين أو ثلاثة أخبر

أنه قد ضعف، فأمر المتطببين بلزوم داره، وبعث إلى قاضى القضاة والقضاة فأحضرهم مجلسه وأمره [قاضى القضاة] أن يختار عشرة ممن يوثق به فى دينه وورعه وأمانته فأحضرهم فبعث بهم إلى دار الحسن وأمرهم بلزومه ليلاً ونهارًا، فلم يزالوا هناك حتى توفى عليه السلام فلما ذاع خبر وفاته صارت سر من رأى ضجة واحدة وعطلت الأسواق وركب بنو هاشم والقواد وسائر الناس إلى جنازته، فكانت سر من رأى يومئذ شبيهًا بيوم القيامة، فلما فرغوا من تهيئته بعث السلطان إلى أبى عيسى بن المتوكل يأمره بالصلاة عليه، فلما وضعت الجنازة للصلاة عليه، دنا أبو عيسى منه فكشف عن وجهه فعرضه على بنى هاشم من العلوية والعباسية والقواد والكتاب والقضاة والمعدلين وقال: هذا الحسن بن على بن محمد بن الرضا، مات حتف أنفه على فراشه، وحضره من خدم أمير المؤمنين وثقاته فلان وفلان وفلان ومن القضاة فلان وفلان، ومن المتطببين فلان وفلان، ثم غطى وجهه وصلى عليه، وأمر بحمله، وخرجنا وهو على تلك الحال والسلطان يطلب أثرًا لولد الحسن بن على إلى اليوم وهو لا يجد إلى ذلك سبيلاً، وشيعته مقيمون على أنه مات وخلف ولدًا يقوم مقامه فى الإمامة.

ومرض أبو محمد عليه السلام فى أول شهر ربيع الأول سنة ستين ومائتين، ومات فى يوم الجمعة لثمان ليال خلون من هذا الشهر فى السنة المذكورة، وله يوم وفاته ثمان وعشرون سنة، ودفن حيث دفن أبوه من دارهما بسر من رأى[1].

والآن يوجد ضريح الإمامين الهادى والعسكرى فى مدينة سامراء بالعراق، والتى كانت تعرف بمحلة العسكر.

***

(١) سامراء.

(١٢) محمد بن الحسن العسكرى (المهدى المنتظر)
(٢٥٥ ـ ٣٢٨هـ)

وخلف الإمام الحسن العسكرى ابنه الإمام المهدى المنتظر، وكان أبوه قد أخفى مولده وستر أمره لصعوبة الوقت وشدة طلب سلطان الزمان له واجتهاده فى البحث عن أمره، ولما شاع من مذهب الشيعة الإمامية فيه، وعرف من انتظارهم له، فلم يظهر ولده عليه السلام فى حياته ولا عرفه الجمهور بعد وفاته. وجرى على أهل الإمام الحسن العسكرى أبى محمد عليه السلام بسبب ذلك كل عظيمة من اعتقال وحبس وتهديد وتصغير واستخفاف وذل، ولم يظفر السلطان منهم بطائل.

يعتقد الإمامية أن الإمام الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى، هو المهدى المنتظر الذى اختفى عن الأنظار بعد مولده سلام الله عليه، ولا يعرف أحد مكانه على وجه التحديد، أما ما يقوله البعض من أنه دخل فى كهف أو فى سرداب فكلام لا أصل له ولا سند، وللمهدى سلام الله عليه غيبتان، غيبة صغرى وغيبة كبرى.

ابتدأت الغيبة الصغرى فى السنة التى توفّى فيها والده الإمام العسكرى عليه السلام عام ٢٦٠ هـ، وانتهت عام ٣٢٩ هـ، وكان له فيها سفراء أربعة هم:

عثمان بن سعيد العمرى الأسدى، وقد كان وكيلاً للإمام الهادى، ثم للإمام العسكرى، ثم للإمام محمد المهدى عليهم السلام.

ثم محمد بن عثمان بن سعيد العمرى الأسدى، حيث قام بأمر السفارة بعد وفاة أبيه مدّة تقارب الأربعين عامًا حتى وفاته عام ٣٠٥ هـ.

ثم الحسين بن روح، الذى قام بأمر السفارة منذ وفاة محمد بن عثمان العمرى حتى وفاته عام ٣٢٦ هـ.

وأخيراً على بن محمد السمرى وقد قام بسفارته لمدّة ثلاث سنوات انتهت بوفاته فى ١٥ شعبان ٣٢٩ هـ.

والمعروف أنّ هؤلاء السفراء الأربعة دفنوا بعد وفاتهم فى مدينة بغداد، ومشاهدهم معلومة مشهورة إلى يومنا الحاضر.

ثم ابتدأت الغيبة الكبرى بتاريخ ١٥ شعبان ٣٢٩ هـ بعد وفاة السفير الرابع، الذى قال عندما سئل عمن يخلفه بهذا الأمر: (لله أمر هو بالغه) وفيه بيان لما أعلمه به الإمام المنتظر ـ عجل الله تعالى فرجه ـ ببداية الغيبة الكبرى المستمرة إلى يومنا هذا.

الغيبة والعقل

من الناحية العقلية لا نرى ثمة دليلاً على استحالة أن يمتد عمر إنسان خلقه الله تبارك وتعالى طوال هذه الفترة الزمنية، وقد لبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا قبل أن يأخذهم الطوفان وهم ظالمون.

أما ما يدعيه البعض من أن انتظار الغائب حتى يرجع يعوقنا عن العمل والإصلاح فهو أيضًا كلام لا ينهض على ساقين؛ إذ إن العائق عن العمل من أجل الإصلاح يتمثل فى انحراف المسلمين عن جوهر دينهم، وعدم استخدام المسلمين لعقولهم، وانشغالهم بحروبهم ومؤامراتهم الداخلية التى تنفق فيها المليارات من أموال المسلمين بينما يتضور الملايين من المسلمين جوعًا وجهلاً ومرضًا.

المسلمون أنفقوا المليارات فى حرب العرب ضد إيران، ثم غزو العراق للكويت، وبخلوا بها على إصلاح التعليم فى بلدانهم، بينما ينتظر اليهود مسيحهم، وينتظر النصارى عودة المسيح إلى الأرض، ولم يكن هذا حائلاً بينهم وبين السيطرة على العالم.

الاعتقاد بغيبة المهدى وبالسعى لتمهيد الأرض من أجل ظهوره **«ليملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت ظلمًا وجورًا»** هى عقيدة إيجابية تحفز النفس على العمل وتملؤها بالأمل وتقول للمؤمنين الصابرين ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ** ﴿٣﴾﴾ [الضحى: ٣] وهو سبحانه قادر على نصرهم ﴿**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ** ﴿٤﴾ **بِنَصْرِ اللَّهِ**﴾ [الروم: ٤ ـ ٥].

***